
إنسانزم
رواية قصيرة و قصص
كريم علي
س ل و ك
ش ع و ر
ر غ ب ة

إنسانِزم

روايةٌ قصيرة وقصص



كريم علي



كريم علي/ كاتب ومهندس مصري من مواليد القاهرة 1988، تخرج من كلية الهندسة عام 2010. نشر عددا من قصصه في صفحات ومواقع إلكترونية، كما نشر العديد من المقالات فيبوابة البلد اليوم الإلكترونية، وتعتبر "إنسانزم" هى أولى مغامراته في مجال الكتاب.

....

إنسانزم
كريم علي
الطبعة الأولى أكتوبر 2015
رقم الإيداع: 2015/20617
الترقيم الدولي: 978-977-5154-53-8

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

إنسانِزم

المحتويات

بل هو رزقٌ تجلى في ميقاته . .

إهداء

(إلى مستقر رحمتي في الحياة.. أبي وأمي

و

إلى من كان حضورها في حياتي ضروريًّا

و بمساندتها سأتمم عبوري.. زوجتي الحبيبة)

إنسانِزم:
[شعور ـ سلوك ـ رغبة]

بُص في عيون اخوك

تقرا العجب . .

تلقى الرضا . .

والغضب . .

واللي زرعه يا عيني . . اتجدب !

عيون كتير ضِعف العدد والبشر

واحدة فيها الخير والتانية تقطر شرر

وعيون حيارى وعيون سهارى

واللي بنصيب الغير تتوهم

وتقول اشمعنى هو اتوهب !

لكن الإنسان . .

ابن بني إنسان

يدوب تبص في عينيه

روحك إليه تنسحب !

كريم علي

20 يناير 2015

الثعلب والأرنب والكسكسي!

(1)

طرقٌ منغم على دُفٍّ صغير يتخلله نداء يصيح في الآفاق:

«يا أهل المدينة.. يا كبار تُجارها وساداتها.. اجمعوا واسمعوا وعوا. أصدر السلطان النوري سلطان البلاد أطال الله عمره وسدد خطاه وثبت ملكه، مرسومًا سلطانيًّا أمر فيه بتشييد ديوان للمظالم يليق بمقام القاضي الغضنفر، قاضي المدينة الجديد. وبناءً عليه فقد كلف جلالته الوزير حسونة الأرنب وزير البلاط السلطاني، والأمير عطوة الثعلب كبير طائفة البنائيين، والأمير رفاعة الكسكي كبير تجار التحف والأنتيكات، بإتمام مهمة التشييد في مدة لا تزيد عن عام هجري، والحاضر يُعلم الغائب».

ثم تكرر الطرق والنداء بجميع أنحاء المدينة حتى علّمت كل فئات المدينة بخبر المرسوم السلطاني العاجل.

فئاتُ المدينة أربع.. أولهم أهل الظل العالي، السلطان والأسرة الحاكمة، وهي الفئة المتعاقب خروج السلاطين منها. تسكن قصر

الحكم الأنيق المهيب القابع على أطراف المدينة حيث الهدوء والخضرة واللامساس! أما الفئة الثانية بعد الظل العالي فهم أهل القضاء ورجال الدين من الائمة والآباء، وتلك طائفة لا تُغلَق أبواب السلطان في وجوههم قط، مع الحفاظ على قيومية السلطان عليهم.

ثالثة الفئات هم الطوائف.. الطوائف هم أهل الاختصاص وأصحاب الحرف والأعمال. بقولٍ آخر.. لكل مهنة طائفة، مثل الأطباء والبنائيين والتجار، وغيرهم من الطوائف، كلٌّ وفق مهنته، ويبقى شرط استحقاق توصيف طائفة أن يتصدر الطائفةَ رجلٌ قد منحه السلطان لقب الأمير ليصير مندوب طائفته لدى السلطان، وبالطبع ممن لديهم خبرة وشأن في المهنة نفسها. الفئةُ الأخيرةُ الكاسحة هم العامة والدهماء من العمالِ والفلاحين، وأصحاب الحانات الصغيرة والمقاهي، فاقدي الوصل بالظلِ العالي، حيث لا غطاء لهم ولا أمير يرتقي بهم وبمرتبتهم.

من اتصل ببلاط السلطنة اتنصف، ومن أعرض نُسي وظُلم. من هذا المنطلق حرصت المدينة بطوائفها على الاتصال بقصر الحكم عبر شخصٍ منهم قد تدرج في الوصل حتى فُتحت له ولهم طاقة القدر بمنحه لقب أمير، فتكبر شوكته ويسعى للحفاظ على حقوق طائفته واستردادها عند الجور، ولا مانع من تلميع رجاله لدى السلطان وحاشيته لنَيْل الرضا ومن بعدها الغوص في نهر العطايا والمنح التي لا توصد إلا بخيانة أو وشاية أثارت دِنِيَّة السلطان القاتلة التي أغلقت أبواب الخير أمام الكثير!

تسير أحوال العامة والدهماء اليوم بروحهِ، معيشة اليوم لليوم وما لغدٍ لغدٍ. يحاربون على أقوات أولادهم حربًا لا عصيان بها ولا قتال، حربًا صامتة تُديرها أنفسهم مع أنفسهم. يخشون ان تتعدى أحلامهم على واقع الكبار فتشعر العيون بأحلامهم تلك وتتناقلها ألسنة البصاصين إلى الظل العالي وما حوله من حاشية. لذا رُسمت العلاقة بين العامة والظل العالي رمزًا وتلميحًا، بل وألقابًا بدأت مستترة حتى ذاع صيتها وأصبحت بطحة يتحسس الناس بها فحوى أصحابها.

(2)

يتجمع غواة السهر من الناس كل ليلة عقب صلاة العشاء عند جلسة الشيخ سلامة العربي. يحتسون الشاي والقهوة، ويستمعون لبعض الابتهالات الروحانية، ومن بعدها السِيِّر العربية القديمة، وأبرزها السيرة الهلالية. بطبيعة الحال لا يخلو الحديث والسرد من تلميحات السياسة التي لا تبدو لغزًا على بصاصي الجلسات المتناثرة آذانهم بين أفواه الناس كأشلاء جيش ألَّمت به هزيمة نكراء.

الشيخ سلامة العربي رجل أشيب تجاوز الستين من عمره، بياض لحيته أعطاه وقارًا فوق وقار حكمته وهيبة فوق هيبة حقه. تلك الهيبة التي وضعها الله في قلب من رآهُ حاكمًا كان أو محكومًا.. أنعم الله عز وجل على العربي بصوت شجي وموهبة سرد فريدة أذاعت صيته وجلبت له محبة جارفة لدى محبيه الزاحفين خلفه من جل

القرى البعيدة عن المدينة.

سرده ليس كسرد أحدٍ من القصاصين، لا لحلاوة صوته فقط، ولكن لبراعته ولؤمه معًا في غزل ودمجَ القصص مع الواقع، ناتجًا عنه ثوب لسرد جديد دُس بحواشيهِ الغمز واللمز، يضرب به صوامع الفسدة كل ليلة سرًّا وعلانية!!

صار الشيخ العربي مع الأيام نبض الرعية وصوت المعارض الذي بداخلهم. وقد انصرف منذ فترة ليست بالقصيرة عن سرد نوادر التاريخ، وأخذ السرد وجه التلميح والتنبيط على حاشية السلطان النوري، بل ولمز السلطان النوري نفسه بالنقد، مستندًا إلى قوة سريرته في قول الحق، فضلًا عن شعبيته الجارفة ومحبة الناس، إلا انه لا يركن إليها كثيرًا؛ لاعتقاده الإيماني أن الاستعانة بالله وحده.

اغتاظت حاشية السلطان من الشيخ العربي، إذ أصبحوا المُضغة الأساسية في ليالي سرده بالرمزِ والألقاب. يعلمون جيدًا أن اللقب الصادر من فم العربي لن يمر مرور الكلام، بل سينتشر في المدينة انتشار النار في الهشيم حتى يُطوق الناس رقاب أصحاب الألقاب بألقابهم عبر التكرار والإثبات فيلتصق اللقب به ولو على غير مراده، ثم يصير مع الأيام لقبه الرسمي، خاصة إذا استُخدم اللقب بأحد مراسيم السلطان الرسمية.

يمتلك العربي فلسفة خاصة في اختيار ألقابه التي يصف بها شخصيات قصصه. اعتقد طيلة حياته بالتشابه الشديد وقرب الطبائع بين الحيوان والإنسان، فمن الحيوانات الطيب الأليف

والشرس المفترس والخبيث والمتردد والقيادي والبطيء والسريع، وغيرها من الصفات المتوفرة لدى الإنسان؛ ولذا لم تُرهَق فطنته لإيجاد الصفة المشتركة بين أي فرد يريد نقده وحيوانٍ بعينه، ومن ثمَّ منحه اللقب المناسب له.. وربما كان اللقب لا علاقة له بالحيوانات، وارتبط بفعلٍ ما له تأثير في المدينة وقد كرره صاحبه حتى ارتبط به الفعل وعُرف به وصار صورته الذهنية عند الناس!

اعتاد السلاطين قبل النوري، وهو من بعدهم، على اختيار الحاشية من عِلْية القوم المنتمين إلى طابور أهل الثقة الطويل، وإلى فئة الطوائف البالغين من الرقي والأبهة ما يكفي لمجالسة أسرة السلطان، ويا حبذا لو اختلطت دماء نسب بين الوزير أو الأمير المختار والأسرة الحاكمة. انتهج السلطان النوري النهج نفسه حين جلس على كرسي السلطنة وقرب رجاله المقربين من صدر الحكم، فجاء المرسوم السلطاني الأول له يحمل الخير للأمير حسونة التيجاني الذي عُين وزيرًا للبلاط، وخلف المرسوم مرسومٌ آخر ينص على تولية الأميرين عطوة قليوب ورفاعة السنهوري مساعدين للوزير حسونة.

فلكل حاكم رجال، ولكل رجال الحاكم رجال، وللرجال رجال ينسجون خيوط نفوذهم على رقاب العباد بالخير والشر والنعمة والنقمة، جميعهم للولاء والتنفع والاكتساب ساعون ولو بالبطش والتجبر والكذب، إلا من رحم الإله المتعالي القوي العزيز.

(3)

الإنسانُ غامضٌ بطبعه. يرى في خفاءِ جزءٍ لا بأس به من طبعه وعيوبه الحكمةَ والدهاء، بل الوقاية من تلاعب الآخر به إذا كشف آخر شطآنه وأصبح كالكتاب المفتوح أمامه!! افتقد الثلاثي المُختار لتشييد ديوان المظالم الجديد للغموض وحرية إخفاء طبائعهم أمام الشيخ العربي، فهو يعرف شخصياتهم ومداخل طبائعهم؛ ولذا هم له كارهون.

وُصل حبل الود بين الشيخ العربي والأمير حسونة التيجاني قبل توليه وزارة البلاط بفترة طويلة، الأمير حسونة التيجاني أسمر البشرة واسع الجبهة حسن المظهر، تبدو على ملامحه طيبة تُحبب الناس فيه.. استبشر العربي وأمل في سداد صنيع حسونة وبذله الجهد لتحسين أحوال الرعية. لكنه سرعان ما خيَّب رجاء العربي فيه بعد سلسلة من القرارات التي رجع عنها بسبب التردد وخوفه من غضب الأمراء وثورتهم.

كانت القشة التي قصمت ظهر المودة والأمل بينهم، حين هرع الناس إلى الشيخ العربي يشكون إليه ما سوف يحل عليهم من خراب بعدما ألغى وزير البلاط قراراه السابق بعدم احتكار كبار التجار للمواد الغذائية الهامة، حتى لا ترتفع أسعارها، لا سيما مع احتياج أهل المدينة كغذاء حيوي، تحت ضغط شديد من الأمراء حفاظًا على مصلحتهم فقط.. غضب الشيخ العربي أشد الغضب وقال قولته التي

انتشرت في أرجاء المدينة بسرعة البرق: «فعلها حسونة الأرنب».

شرح العربي لمُريديه صفات الأرنب المتمثلة في الاستئناس والألفة الشديدة، وكيف أن الأرنب ينشط فجرًا وعند الغروب فقط، أي في لحظات الهدوء والسكون والخفاء؛ لعدم قدرته على المواجهة، فضلًا عن حذر الأرنب الشديد وسرعة ركضة وارتداده من حيث أتى إذا تطلب الأمر وشعر بالخوف.. ثبت لقب الوزير تمامًا في الأذهان بعد ذلك الشرح وصار الربط بين اللقب وصاحبه أبديًّا!

كان الأرنب آخر المُكْتوين بنار ألقاب العربي بعد أن سبقه الأمير عطوة والأمير رفاعة. وكلٌّ منهما له سببٌ وبرهان!

المكر والدهاء يلزمهما سريرة تتسم بالنصاحة، وفطنة مؤمن، وكياسة حكيم؛ حتى لا يقع الإنسان في مكر الماكر ونفاقه.. من يكون ذلك الحكيم في المدينة بأسرها سوى الشيخ العربي الذي لم يبتلع طُعم ومكر عطوة قليوب يومًا!! العربي يعلم ما تحمله عيون عطوة من غل وكره له، يفطن لخبث مراد عطوة بالفوز بطيب الكلام والأوصاف في ليالي العربي الشجية عند كل انحناءة توقير يمارسها عطوة أمام العربي. يتحدث إليه أمام الناس مكسور الجبهة باسطًا يده طالبًا الرضا، ومطلقًا لسانه بمدحه كلما جمعهما مجلس.

الأمير عطوة قليوب أقرب إلى قصر القامة، رقد الدهاء بعينيه ورفض الخروج.. ويعتقد أن المُضي في دروب الكُره البواح تجاه الشيخ العربي غباء جسيم؛ إذ له ظهير شعبي، وتوابع ذلك الكره لن تقف عنده فقط بل ستمتد إلى عامة الناس من مُريدي القصَّاص

الأشهر ومُحبيه.. وهم كثرُ!

يُقِرُّ الشيخ العربي بمكرٍ ودهاء عطوة من قبل منحه لقب أمير، لعل واقعة منحه اللقب وتنصيبه كبير طائفة البنائين في مرسوم سلطاني واحد أكدت للجميع، ومن قبلهم الشيخ العربي، حجم مكره ودهائه، لا سيما أنها المرة الأولى من نوعها أن يظفر شخص ما بالحُسنيين في آنٍ واحد.. ولكن تفرده في المنح هذا لم يكن السبب الرئيسي في إطلاق العربي عليه وصف «التعلب»، بل إن حواشي وتفصيلات المنح من مكر، كانت كفيلة لتحويل مراشقة العيون الدائرة بينهما إلى صدام علني بدأ بغمز العربي ولمزه، وتوسطها منحه لقب التعلب، ووصلت لذروتها بكشف القصاص عن مكيدة الإطاحة والمنح!

سأل أحد مريدي العربي بعدما فرغ من قصصه، وكانت المرة الأولى التي يصف فيها عطوة بالتعلب.

- لِمَ وصفته بالتعلب يا مولانا؟!

- التعلب بطبعه ماكر مفترس، يتقن فنون المكر السيئ والدهاء. افتراسه ليس عن منازلة وشجاعة، بل افتراس المكائد وانتهاز الفرص لمباغتة فريسته الأليفة في الخفاء.

ذلك مكر التعلب الذي اتبعه عطوة مع رئيسه الأمير الطيب عبد الوهاب الفاروقي كبير طائفة البنائين سابقًا، عندما كان عطوة مساعده الأول الذي لا تخفى عليه خافية عن أحوال البنائين وأماكن عملهم الكثيرة في كلِ أنحاء المدينة.. سلطة السلطان في تعيين حاشيته بالكامل بما فيهم مساعدي الأمراء - غير الممنوحين حينها لقب

الأميرية- منعت الأمير عبد الوهاب مرارًا من عزل عطوة، رغم ذكائه الشديد وتفوقه في العمل؛ لأنه كثير التشاحن معه والغيرة منه بل استكثار منصبه عليه، ويرى عطوة دومًا أنه الأحق به.

حانت الفرصة أمام عطوة للتخلص من الأمير عبد الوهاب، أو على الأقل تهميشه أمام السلطان، لعله يرتقي مرتبة فوق التي هو عليها.. وكان له ما أراد حين ذهب الأمير عبد الوهاب إلى مكان تشييد ديوان استقبال الضيوف الجديد، والمسئول وقتها عنه عطوة قليوب. آثر الأمير سؤال أحد البنائين حول العمل ومشكلاته عن سؤال عطوة، رغبةً منه في الوقوف على حقيقة الأوضاع بنفسه لا نقلًا عن أحد. لم يكن يعلم الأمير الطيب أن ولاء أغلب البنائين في مكان التشييد هذا وغيره، بل بين أغلب رجال الطائفة، لعطوة التعلب؛ نتيجة لسطوته وسيطرة مكره عليهم.. تحايل العامل في الإجابة على الأمير خوفًا من التعلب، حتى ينقل فحواها له.. علِم عطوة بما كان فسعد وكأن عفوية الفاروقي قد مهدت الطريق لمكره. فردَّ العامل بإجاباتٍ حقيقية منقوصة تحمل جزءًا صغيرًا من الواقع، وذلك كان الفخ الذي نصبه التعلب للفاروقي!!

عرض الفاروقي على السلطان تقرير العمل وتفصيلاته بديوان الضيوف الجديد دون تردد أو ريبة. بعدها ببضعة أيام نفذ التعلب مكره وطلب مقابلة السلطان في أمر هام معتمدًا في طلبه على حب السلطان له وشهادته له بالذكاء والاجتهاد في مواقف شتى.. وافق السلطان وظن في حضوره بصحبة الأمير الفاروقي، إلا انه وجد التعلب ينتظر في قاعة الحكم بمفرده.

زحف التعلب على أعتاب أذن السلطان مرتديًا ثوب الإخلاص وقص عليه بنبرة انكسار تعلبية ولهجةِ شاكٍ واقعةَ الأمير والعامل! شكا من تعدي الأمير الفاروقي له بسؤال العامل، رغم كونه مساعده الأول الأمين، وهو ما كانت نتيجته جلب أخبار تتسم بالنقص وعدم الدقة، وراح التعلب يوضح كل الأخبار على حقيقتها حتى بيَّن وضع العمل برمته للسلطان، الذي استحسن صنيع التعلب بإبلاغه! استشفَّ النوري مما سمع بغير استقصاء عدم دراية الفاروقي لما يجري بين طائفته من خبايا وأخبار، وبناءً عليه عزله من تصدر طائفته، على أن يكون أحد أهل المشورة لديه، ومنح التعلب لقب أمير ونصبه كبير الطائفة في الوقت نفسه وفي مرسومٍ واحد!!

تشتهر بلاد المغرب وبلدة المدن الخمس الغربية (ليبيا) خاصة، بأكلة الكسكسي الشهيرة، وتعد الطبق الأول لديهم، حتى تخطت شهرة الأكل إلى الرمز الاجتماعي، أي أن هذا المجتمع أو ذاك صار يستخدم اسم الأكلة وما يصاحبها من أدوات تحضير لها كمدلولات رمزية في نطاق الحياة. كثرة الاستخدام قد يحول الأمر إلى قانون أو مثل شعبي وإن لم يتم الاتفاق على جعله مثلًا شعبيًا، وذلك ما جرت عليه الحوادث فيما يتعلق بأكلة الكسكسي ببلدة المدن الخمس، حيث لشدة تعلقهم بالأكلة استُخدمت كرموز كلام خفية بينهم، إلى أن صار يُضرب بها الأمثال، مثل المثل الشعبي (زي لطام الكسكسي) أي مثل الأدوات المستخدمة في طهي الكسكسي التي كانت رخيصة الثمن، فضرب المثل بها كناية عن قلة قيمة الشيء وضعفه وعدم الاستناد إليه.

الصحراء الصفراء الواسعة تحمل فوق صفحات رمالها المُرتحلين بتجارتهم وثقافتهم على حد سواء، تُجار من كل البقاع القريبة من المدينة خاصة البلدة المسماة بالمدن الخمس الغربية، يتناقلون البضائع بينهم ولا بأس من الثقافات المختلفة، لا سيما وأن اللغة العربية كانت هي السائدة.. تكرر المثل السابق ذكره كثيرًا بين التجار حتى حفظه تجار المدينة عن ظهر قلب، ولأن لكل بلدة صياغتها الخاصة تخلى أهل المدينة عن كامل نص المثل وبقيت لفظة "الكسكسي" وحدها يرمز قائلها اجتماعيًّا إلى ما هو عشوائي غير منظم وضعيف!

عبر قارب ذلك التعبير أفلت الأمير رفاعة السنهوري من تقارن طبائع الحيوانات وطبائع بني إنسان، ذلك التقارن الذي نهجه الشيخ العربي وأحب التعمق فيه وتطبيقه على العامة والخاصة. كان لقب رفاعة حاضرًا على لسانه، لم يجلبه أحد إليه سواه.. بقولٍ آخر، كان تعبير "الكسكسي" هو لازمة الأمير رفاعة، يقولها ويكررها على أغلب الأشياء والأشخاص استعلاءً منه عليهم أو توبيخًا لهم.. لا يرى شيئًا خارج نطاق الكسكسي أو له قيمة كاملة غير نفسه؛ ولذا أطلق الشيخ العربي عليه لقب الكسكسي، وذاع صيت اللقب حتى أصبح رسميًّا في مراسيم السلطان!

رفاعة الكسكي طويل القامة قمحي أقرب للسمرة، لا يخرج من بيته إلا معطرًا، على ملامحه مهابة تلازمها سلاطة لسان وصوت أجش.. لا يغيب على الكبير والصغير في المدينة، البُغض الذي يحمله الأمير رفاعة الكسكسي للشيخ العربي، لا يطيق رؤيته، وطالما وصفه في جلساته الخاصة بالشيخ الخرِف الذي يُضل من يستمعون إليه

بالخرافات ويُثيرهم ضدنا وضد السلطان، وردد كثيرًا رغبته وأمنيته أن يسجن السلطان الشيخ العربي؛ لما أطلق من ألقاب طوقت رقاب أصحابها!

(4)

بعد مرور أربعة أشهر من مهلة العام الهجرى، فُتح باب القاعة الضخم، حرك حراس الباب رماحهم حركة استقبال واستهلال إلى الأمام في انضباط شديد، أعلنوا زاعقين ومرحبين ومعلنين: جلالة السلطان النوري بن الأسعد سلطان البلاد.. دخل السلطان قاعة الحكم وسط انحناءة رجاله الثلاثة الثعلب والأرنب والكسكسي تبجيلًا له، اتجه السلطان قبالة كرسي السلطنة الأنيق أرابيسك الصنع المرصع بالماس، وارتقى درجتي السلم الراقدتين أمام الكرسي ثم جلس وأشار بيده للثلاثي بالجلوس.

بدأ السلطان النوري في الحديث مقتضبًا:

زارني بالأمس القاضي الغضنفر يشكو لي بطء العمل بالديوان الجديد بعدما مرَّ أربعة شهور من بدء العمل، ويتهمكم صراحةً بالتقصير، فضلًا عن استيائه من الفوضى القاتلة على حد وصفه في مناطق العمل.. ما قولك في هذا التهام يا وزير البلاط؟!

– يا مولاي السلطان، نحن نبذل قصارى الجهد لإتمام التشييد على النحو الذي يُرضيك ويناسب قدر القاضي الغضنفر. على سبيل المثال

يا مولاي، فرجال الأمير عطوة يعملون ليلًا ونهارًا، قسمهم الأمير إلى مجموعتين، الأولي تعمل نهارًا، والأخرى ليلًا؛ كيلا يقف العمل، أما فيما يخص أعمال الأمير رفاعة فهي لم تبدأ بعد؛ نظرًا لأنها أعمال تجميلية بواسطة التحف والأنتيكات وثريات وأباليك الإنارة، وكلها يا مولاي تأتي بعدما يكتمل هيكل البناء ومن بعده المشغولات النحاسية.. أود طمأنتك يا مولاي أننا سنكون جاهزين في الموعد المحدد إن شاء الله.

هنا طلب الأمير عطوة التعلب أن يسمح السلطان له بالحديث فأذن له:

- يا مولاي السلطان، البناءون رجالي أتموا عمل ثمانية أشهر في أربعة أشهر فقط، ونحن نبذل قصارى الجهد مثلما ذكر لجلالتك وزير البلاط، ولكن سبب التأخير، وربما الذي أعطى إيحاء التقاعس للقاضي الغضنفر ولم يذكره الأمير حسونة، هو ذلك الحرفي «عمار الإبراهيمي» حرفي المشغولات النحاسية.. من المفترض يا مولاي أن يبدأ في عمله الدقيق الذي يلزمه إتقان عقب انتهاء رجالي من البناء، وها هو أمامه الآن أجزاء كثيرة يمكنه البدء فيها، لكنه متقاعس وأداؤه ضعيف جدًّا.. على كل حال يا مولاي سنبلغه غضب جلالتكم واعتراض حضرة القاضي الغضنفر.

أبي التعلب إلا أن ينصب فخًّا مفاجئًا للكسكسي - ربما لم يتوقعه- ذاكرًا للسلطان سبب التأخير الثاني:

- أري سببًا آخر للتأخير يا مولاي، وقد يلوح في الأفق في المراحل

النهائية لعملية التشييد إذا لم ننتبه إليه الآن. طلب القاضي الغضنفر منكم يا مولاي قبل بداية التشييد جلب مائة أبليك خاصة، ليست كالأباليك المتعارف عليها في مدينتنا، ولا تتوفر إلا في ديوان المظالم بالآستانة عاصمة الخلافة، وإلي يومنا هذا لم نَخْطُ خطوة واحدة في هذا الاتجاه، ولعل الأمير رفاعة يخبرنا بما يطمئننا في شأن الأباليك هذه، فلا يُفتَى والأمير رفاعة في المدينة!

هزَّ السلطان رأسه يتدبر ما قاله التعلب ثم قال:

– لِمَ لا تشاركنا الحديث يا أمير رفاعة؟ أود معرفة رأيك!

بدأ الأمير رفاعة في الحديث بصوته الأجش قائلًا:

– في المبتدأ يا مولاي السلطان، أؤيد ما قاله الأمير عطوة عن ذلك الحرفي الكسكسي عمار الإبراهيمى.

– غريب أمرك يا كبير تجار التحف والأنتيكات! أجميع الناس لديك كسكسي؟! كان محقًّا القصاص العربي عندما أطلق عليك هذا اللقب!!

ابتسم رفاعة ابتسامة المتعض وأخفى حنقه من استهزاء السلطان به.. لم يستطع أحد من قبل أن يُكلمه بهذه اللهجة التي تهز اعتزازه وغرور نفسه. لعن الشيخ العربي في سره، وتدارك الأمر سريعًا تحت ستار الابتسام، واسترسل قائلًا:

– يا مولاي السلطان، هذا الحرفي الفاشل عمار الإبراهيمي يستحق وصف الكسكسي؛ لما يملكه من سوء تنظيم وعشوائية في العمل، فضلًا عن بطء أدائه وتصلب رأيه ورفضه للنصيحه.. أنا صرحت برأيي من

اليوم الأول لوزير البلاط الأمير حسونة أن هذا الحرفي كسكسي ولن يفيد العمل، وعلينا استبداله أو على الأقل تقسيم العمل بينه وبين حرفي آخر.

سكت رفاعة لبرهة، ظن الجميع انتهاءه من الحديث، لكنه كان يستجمع قواه وأفكاره ليرد الصاع صاعين للتعلب، واسترسل من بعد توقف:

- المشكلة الأكبر كما ذكرتها يا مولاي هي بطء أداء وضعف الحرفي عمار الكسكسي هذا، ولكن ستواجه عمار أو غيره من الحرفيين مشكلة أخرى هي عدم جاهزية مناطق العمل للبدء الفوري كما ذكر الأمير عطوة!!

- أفصح بوضوح يا رفاعة!!

- يا مولاي، أعمال المشغولات النحاسية أعمال تلزم الدقة واستواء السطح المراد الدق عليه، وإلا ظهرت المشغولات متعرجة وضاع جمالها.

ثم حرّك الأمير رفاعة يديه اليمنى حركة سخرية تناسب نبرته المتهكمة لكلماته تلك القاصد بها التعلب:

- يبدو يا مولاي أن عمال البناء لم يخبرهم أحد بضرورة استواء الأسطح! فظهرت الأسطح المكتملة بناؤها غير مستوية للحد الذي يعرقل حرفي المشغولات النحاسية من بدء العمل قبل أن يعيدوا استواء الأسطح، مما يضاعف وقت العمل ويضاعف الجهد، ونحن في أمسِّ الحاجة للوقت والجهد!! أما فيما يخص الأباليك الخاصة، فلو

صبر القاتل على المقتول لربما جاء أجله ومات وحده! كنت سأخبرك يا مولاي بشأن الأباليك الخاصة تلك بعد الانتهاء من أمر عمار الإبراهيمى.. باختصار يا مولاي السلطان، الأباليك لا شبيه لها سوى في عاصمة الخلافة، ونحن نبحث عن تاجر كبير لديه القدرة وتجربة السفر إلى عاصمة الخلافة، وأتعهد إليك يا مولاي بمجرد الاتفاق مع التاجر وجلب الأباليك سنشرع في تركيبها والانتهاء منها في غصون ثلاثين يومًا إن شاء الله.

سكت السلطان وعبث بلحيته متدبرًا ثم قال:

- فليأخذ الأمير غسان زوج أختنا المصونة الأميرة قمر على عاتقه مسئولية جلب الأباليك الخاصة من الآستانة، وله كل ما يطلبه من المال لإتمام الأمر.

بارك رفاعة قرار السلطان معقبًا:

- نعم الرأي يا مولاى، فالأمير غسان أخ كريم وصديق عزيز حلو المعشر، وهو صاحب أصل عريق وأكبر تاجر للقطن في المدينة بأسرها، وله عدة سفريات لعاصمة الخلافة ستساعده على إنجاز المهمة بنجاح في أسرع وقت ممكن.

كان الأرنب في مبتدأ كلماته للسلطان يرغب أن يُبقي على دواخل وتفصيلات التشييد لما بينهم في الغرف المغلقة دون عرضها على السلطان، اقتناعًا منه أنهم قادرون على تخطي ما يعوقهم من عقبات؛ نظرًا لخبراتهم في فنيات التشييد وعلمهم الأشمل من السلطان بخباياها.. السلطان يهمه فقط إتمام التشييد في موعده المحدد بأي

طريقة كانت وبدون الدخول في أي مناقشات أو تفاصيل لا طاقة له بها.

رأى الأرنب وجهًا جديدًا للأميرين. لم يكن جديدًا على أصحاب الفطنة الحاضرة، ولكن سريرة الأرنب الطيبة غلبت حذره فظن فيهما الحنكة لا المكر، حتى رآهما ينصبان الفخاخ لبعضهما البعض على حساب كشف عوار العمل ومشاكله. حينها قرر الأرنب التخلي عن رغبته الأولى بالكتمان وبدأ في توضيح بعض الأشياء:

- مولاي السلطان، كنت أود الا أُقحم راحة بالكم في أمور التشييد التي نحن قادرون عليها دون الحاجة إلى إزعاج جلالتكم، ولكن يبدو أن الأميرين لديهما رأي آخر؛ لذا وجب عليَّ وأنا المسئول الأول أمامكم عن هذا العمل، إيضاح بعض التفصيلات قيل منها القليل، إحقاقًا للحق والحقيقة.

- تحدث بكل ما تريده يا وزير البلاط.

- أريد يا مولاي عرض الصورة الحقيقة - من وجهة نظري- لعمار الابراهيمي الذي يعتبره الكثير في المدينة وأنا منهم أمهر حرفي المشغولات النحاسية. يعاني عمار يا مولاي السلطان من أزمة مالية وديون ثقيلة أحنت ظهره وجلبت له المتاعب وأذهبت راحة باله؛ ومن ثمَّ صار مهددًا دومًا أن يطرق بابه شرطي يزج به في الحبس إلى أن يسدد ما عليه من ديون.. لذا أقترح يا مولاي أن نساعده بالمال من أجل استكمال العمل، لا سيما أن عمار هو الوحيد الذي يستطيع التغلب على مشكلة استواء الأسطح التي ذكرها الأمير رفاعة.

- لك ما طلبت يا وزير البلاط.. ولكني أحذركم من أمرين، وأنت بالأخص يا وزير البلاط، فأنت المسئول الأول أمامى: الأمر الأول هو تكرار ما حدث بالأمس من فوضى أدت إلى كسر رجل أحد العمال عندما عُرقل أثناء حمله قالب طوب ثقيل، حافظوا على أرواح العمال فهي أمانة في رقبتكم. انتظرت أحدكم أن يُبلغني بما حدث ولكنكم آثرتم الكتمان متناسين أني أعلم خطوات النمل في حجراتكم.. أما الأمر الثانى، فعليكم تحسين العلاقة بينكم، فأنا لم يعجبني الغمز واللمز الذي دار بينكم اليوم.. انتهى اللقاء، انصرفوا إلى عملكم!!

(5)

بعد مرور ثمانية أشهر من مهلة العام الهجري، أيقظ مروان الهندي دويدار القصر السلطان النوري من قيلولته قبيل صلاة العصر للمرة الأولى في تاريخ القصر والسلطنة، قابل السلطان ذلك الإجراء بالفزع ثم التهكم على مروان قائلًا:

- ما بك يا دويدار القصر؟! أشبَّ حريقٌ بالقصر، أم بُعث التتر من جديد على أعتاب القصر؟!

- عذرًا يا مولاى، لكن القاضي الغضنفر منتظر بقاعة الحكم غاضبًا يطلب مقابلة مولاي السلطان لأمر عاجل، ذلك وفق ما قاله في اقتضاب!!

حضر السلطان إلى قاعة الحكم رافعًا حاجبه في ضجر.. ثم سأل

القاضي الغضنفر:

- ما جرى في البلاد يا قاضي القضاة يستدعي أن توقظني من قيلولتي؟!

- عذرًا يا سلطان البلاد، يؤسفني أن أخبرك بأن لديك قتيلًا في ديوان المظالم الجديد.. أترضي بذلك يا سلطان البلاد؟!

- قتيل!!.. ماذا تقصد يا قاضي القضاة؟!.. لقد أثرت قلقي، أفصح يا رجل؟!

- ذكرت لك من قبل يا مولاي السلطان عن الفوضى القاتلة في مكان تشييد الديوان، واليوم صدق حدسي.. بنّاءان بالطابق العلوي يحملان قالبًا من الطوب كبير الوزن، من المقرر أن يستكملا بناء الشرفه به، كاد أحدهما أن ينزلق فاختلّ توازنه ليسقط القالب من يديهما فوق رأس أحد العمال المشتغلين بالتحف والأنتيكات، فمات في الحال.. ولله الأمر من قبل ومن بعد!!

- متى حدثت هذه النكبة يا قاضي القضاة؟!

- قبل ثلاث ساعات..

- أين وزير البلاط الأرنب والأميران المساعدان له؟!

سأل السلطان صارخًا.

- تركتهم مشغولين بأمر القتيل.. لديَّ طلب يا سلطان البلاد بشأن ذلك الثلاثي.

- تحدث بكل ما يجول بخاطرك بلا تردد.

- لا بد من عزل الوزير حسونة الأرنب؛ بسبب تهاونه مع أوضاع الفوضى بلا إصلاح حتى أُزهقت روح لا حول لها ولا قوة، فضلًا عن كونه المسئول الأول أمام السلطان وأمامنا عن تشييييد الديوان!

- صدقت ورب الكعبة يا ابن شيخ الشيوخ.

المرسوم الثاني:

«يا أهل المدينة، يا كبار تُجارها وساداتها.. اجمعوا واسمعوا وعوا. أصدر السلطان النوري سلطان البلاد، أطال الله عمره وسدد خطاه وثبت ملكه، مرسومًا سلطانيًّا قرر فيه عزل حسونة الأرنب من وزارة البلاط، .ومن ثمَّ إعفاءه من التكليف السابق بتشييد ديوان المظالم الجديد، على أن يُعين الأمير رفاعة الكسكسي وزيرًا للبلاط ويتحمل مسئولية تشييد ديوان المظالم الجديد ومن ورائه الأمير عطوة التعلب، والحاضر يُعلم الغائب».

طبائع وشواكل بني الإنسان مختلفة، ذلك الاختلاف الرحمة والنعمة من الله، فلا شدة الطبع بمفردها في الحياة ولا اللين وحده يتحكم في أفعال البشر.. الحياة كالماكينة، وبنو الإنسان تروسها، وطبائعهم وسلوكياتهم الشحم الذي يُسهل حركة الحياة ويُلينها بينهم؛ ولذا بدون الشحم تأكل الأسنان بعضها البعض.. ما بين أسنان دهاء التعلب وأسنان تسلط الكسكسي، كان طبع الأرنب اللين بمثابة الشحم الذي يُسهل حركة التعامل بينهما ويحول بين تشاحنهما وجور طبع

أحدهما على الآخر.

بدت ضبابية الوضع الحالي عقب عزل الأرنب تلوح في الأفق. غيرة عطوة واقتناعه بعدم أحقية رفاعة بتولي الأمر تظهر على ملامحه وطريقة تعامله، أما رفاعة فهو يملك من التسلط ما يُمكّنه من امتلاك زمام الأمور بالقوة ورهبة الجميع من سلاطة لسانه، فيتحاشونه. ويملك من البجاحة ما يجعله لا يلتفت كثيرًا لغيرة التعلب أو يخشى مكر أفعاله مثلما حدث أمام السلطان من قبل.. صارت العلاقة تتسم بالندية، واللقاء بينهما على شفا كلمة تُقال لينشب شجار بالتلاسن وتهييج رجال كل منهما على الآخر.. والسلطان عن كل هذا متغافل عمدًا وبغير عمد!!

قبل قرابة أربعة أشهر من نهاية مدة التشييد ما زال أداء عمار الإبراهيمي ضعيفًا. دوام الحال من المحال.. الأوضاع تغيرت بعد مرسوم السلطان، من قبل كان حسونة الأرنب على اقتناع كبير بمهارة الإبراهيمي فيفتح له أبواب مساندة السلطان له. أما اليوم فقد عُزل الأرنب وملك الأميران الكارهان له زمام التشييد، حتى وصل حد ذلك الكره لديهما أن إثبات صدق تنبؤهما بفشل عمار أهم من إتمام التشييد!!

تسابق التعلب والكسكسي للوصول إلى أذن السلطان ليُشيرا عليه بالإطاحة بعمار واستبداله بثلاثة من حرفيي المشغولات النحاسية كسبًا للوقت والإنجاز.. لم يتوانَ الأمير رفاعة الكسكسي أو يتدبر الأمر فور جلوسه على كرسي الأرنب، وأخذ قراره بإنهاء عمل عمار في

الديوان الجديد معرضًا عمار للقبض عليه في أي لحظة جراء ديونه التي جلبها على نفسه من أجل إتمام العمل.. وافق السلطان على الفور مع غياب المبررات التي طالما قصها على مسامعه حسونة الأرنب من مهارة عمار وديونه التي عرقلته، فضلًا عن وجوب مساندتهم له من أجل ان يتم العمل للنهاية كما بدأه.

أصبح عمار بلا غطاء أو مدافع يدافع عنه لوجه الله ثم حفاظًا على العمل.. رغم الخلاف والتلاسن الصريح بين التعلب والكسكسي إلا أن نوازع الضرر بداخلهم تلاقت على عمار، وقبِل التعلب قرار الكسكسي بقبولٍ حسن وسارع في جلب الحرفيين الثلاثة الذين سيستكملون العمل عقب الإبراهيمي قدس الله سره!!

السلطة مفسدة؛ تُحوِّل طالبها إلى وحشٍ مفترس يسنُّ أنيابه لنهش كل ما أمامه من سلطة وقوة.

شاعت الطائفية في أجواء العمل. فريقان، الأول طائفة تجار التحف والأنتيكات أصحاب السلطة الجُدد، وطائفة البنائين الناقمين عليهم طمعًا في السلطة، محتجين بأن دورهم في عملية التشييد رئيسي ودور طائفة التحف والأنتيكات ثانوي! بادر الأمير الكسكسي تحت جموح السلطة إلى تهميش كل العاملين حوله ما عدا طائفته أهل الثقة لديه، أعطى أغلب الصلاحيات لرجاله وأبقى القليل لطائفة البنائين، فبدا وكأن طائفة الكسكسي يُقدِّمون الغالي والنفيس لإتمام العمل من دون الجميع، بل مقابل قلة المساعدة والاهتمام من الطائفة الأخرى.

استخدم رفاعة التهميش المقصود هذا في ركضه حول أُذن السلطان

شاكيًا من إقامته لحرب التشييد بمفرده هو ورجاله، حيث تواجده في مكان التشييد ليلًا ونهارًا من أجل كسب ثقة السلطان الغالية، فضلًا عن اصطياده في الماء العكر بشكايته من فوضى الأوضاع الملازمة لعهد الأرنب وكيف قضى عليها بعصا موسى التي ملَكَها فلقفت الفوضى وعمَّ النظام في الأركان!!

لا يأمن مكر التعلب إلا سانج!

قابل الأمير عطوة موجة التهميش تلك بتحريك المياة الراكدة في شأن الأباليك الخاصة، ثغرته التي تكاد الوحيدة للنفاذ إلى رفاعة. وجه أنظار طائفته وقاضي القضاة، بل والسلطان نفسه، إلى تأخر وصول الأباليك قبل قرابة ثلاثة أشهر من نهاية التشييد.. يعلم التعلب كل العلم بضلوع الأمير غسان زوج أخت السلطان في.أمر جلب الأباليك من عاصمة الخلافة؛ ولذا عرض التعلب الموضوع على أنه تقاعس من الكسكسي لأنه المسئول الأول عن إنارة الديوان والأكثر تخصصًا، لا سيما وأن دور الأمير غسان ما هو إلا الاستعانة بنفوذه وخبرته في السفر للآستانة، لا لتخصصه، فالجميع يعلمون أنه كبير تجار القطن ولا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة بدون صديقه الصدوق وزير البلاط الجديد، الكسكسي.

أعلن التعلب للسلطان صراحةً مخاوفه من تأخير الأباليك الخاصة، حيث لم يصل سوى عشرين أبليكًا من مجمل مائة.. كلف السلطان رفاعة وغسان بالسفر من جديد لتدبير الأباليك مهما تكلف الشراء من أموال.. تلك الخطوة التي تكررت ولم تجلب سوى وعود الكسكسي

الكاذبة وتواريخه الواهية التي يُخفي وراءها قلة حيلة وتقاعسًا بل وريبة جمة عند ذوي البصيرة!!

(6)

قبل ثلاثين يومًا من انتهاء العام الهجرى، اجتمع السلطان بكبير طائفة الأطباء ليُخبره بقبول طلبه المقدم منذ ستة أشهر بتشييد ديوان جديد للاستشفاء، وسيتم إعلان تفاصيل التشييد في أقرب وقت ممكن.

في وقت لاحقٍ من اجتماع السلطان بكبير طائفة الأطباء، قابل السلطان النوري قاضي القضاة لمناقشة أمر ديوان المظالم بعدما تبين من شواهد العمل صعوبة انتهاء التشييد في المهلة السابق تحديدها.. لخَّص القاضي الغضنفر سبب التأخير في أمرين واضحين لا ثالث لهما: أعمال المشغولات النحاسية، والأباليك الخاصة.

صمت السلطان برهة ثم سأل قاضي القضاة:

- ما الذي تراه من إجراءات نتخذها كيلا يتكرر هذا التأخير مجددًا؟!

- القرار لك يا سلطان البلاد، ولكنني أنصح بعزل كل من كان وراء هذا التأخير وتلك الأغراض الشخصية التي تحكمت في النفوس أكثر من الرغبة في الإنجاز.

- أفصح عما تقصد يا أيها القاضى!

- أقصد ن يلحا الأميران التعلب والكسكسي بالوزير المعزول حسونة؛

لأنهما السبب فيما آل إليه ديوان المظالم من فوضى وتشاحن وتأخير.

- لكنهما رجلاي المخلصان يا قاضي القضاة!!

- إذن ما تراه يا سلطان البلاد.. اسمح لي بالانصراف.

- تفضل!

انصرف قاضي القضاه مغبونًا.. ثم طلب السلطان من قائد الحرس إحضار الأميرين رفاعة وعطوة لأمر عاجل.

بعد تحية السلطان بالانحناء.. تحدث السلطان قائلًا:

- الوضع جدٌ خطير، كيف لمرسوم سلطاني حدد فيه السلطان مدة تشييد بعينها ولا يُلتزم بها؟ أنتما أقرب رجالي إليَّ وأخلصهم لي، وثقتي بكما كبيرة؛ لذا اصدقوني القول!

بدأ الأمير رفاعة في الحديث بنبرة ثقة يحفها الكسكسي من كل جانب:

- يا مولاي السلطان.. لا تستجب لدعاة القلق، فكل شيء على ما يرام، لقد أنجزنا أنا والأمير غسان مهمتنا بنجاح، والأباليك المتبقية ستأتي مع قافلة طويلة قاربت على الوصول وتفصلها عن مدينتنا بضعة أيام، ومن بعدها نبدأ على الفور في تركيبها الذي لن يستغرق الا أيامًا معدودة. إذن نحن جاهزون في المدة نفسها، ووعدي هذا أمامه رقبتي يا مولاي السلطان!!

- وماذا عن أعمال المشغولات النحاسية يا أمير عطوة؟!

- العمل يا مولاي على قدمٍ وساق، الحرفيون الثلاثة أداؤهم يتطور، وهم بكل المقاييس أفضلٌ من عمار الإبراهيمى، وسيقيمون في مكان التشييد الثلاثين يومًا القادمة حتى ينتهوا من العمل.. ورقبتي أنا الآخر أمام وعدي هذا يا مولاي السلطان، فلا تقلق!!

تحدث السلطان إليهما بنبرة بُث فيها الأمل، أو بالأحرى استحبت تصديق الأمل، أعقبها نبرة صارمة محذرة:

- لكما كل الصلاحيات والأموال طوال الثلاثين يومًا المتبقية لتنفيذ وعدِكما. وبلِّغا رجالكما وعمالكما تحذيري الشديد وتهديدي بمنع المتقاعس أو المتخاذل من تحصيل راتبه لمدة لا يعلم آخرها إلا الله!

بعد إتمام العام الهجرى، هرع بعض العمال والدهماء العاملين بديوان المظالم إلى الشيخ سلامة العربي يستنجدون به بعدما تسرسبت لمسامعهم أنباء عن عزم السلطان توقيع عقوبة وقف عدد كبير من العمال عن العمل لمدة عام، فضلًا عن وقف رواتبهم جراء عدم انتهاء التشييد في موعده المحدد.

غضب العربي عضبًا شديدًا، واتجه نحو قصر الحكم ذاكرًا الله كثيرًا ومستغفرًا.. طلب لقاء السلطان فوافق السلطان في استغراب ودهشة وقال مرحبًا:

- قلَّما تزورنا يا شيخ القصص والألقاب.. مرحب بيك يا شيخ سلامة!

- السلام عليك ورحمة الله يا سلطان البلاد.. ليتني ما جئت إليك فيما أنا قادم بشأنه.

- ما هو إذن؟ تحدث يا رجل!

- صحيحٌ ما يتناقله الناس يا سلطان البلاد؟ أتعتزم توقيع عقوبات على عمال ديوان المظالم الجديد؟!

- وما يعينك في الأمر يا شيخ سلامة؟!

- يبدو أن الأخبار صيحة! يا للعجب! يُظلَم الناس بسبب ديوان للمظالم؟!

- أنا لا أظلم أحدًا أيها الشيخ الخرِف.

- بل تظلم يا سلطان البلاد! حين تترك أمراء السوء يتكالبون على السلطة ويتناحرون على حساب البسطاء ويُضحون بهم في النهاية مقابل نجاتهم؛ فأنت إذن تظلم! حين تتركهم يُشردون عمار الإبراهيمي ويتسببون في سجنه لرفضه تدخلهم في عمله بالاستعلاء تارة ولجهلهم تارة، ولقرارات التعلب الخاطئة تارة أخرى، فأنت إذن تظلم! حين تتغافل عن تقاعس الكسكسي صاحب الوعود الكاذبة في عدم إحضار الأباليك لضلوع زوج أختك في الأمر فأنت تظلم! آخر ما سأقوله لك يا سلطان البلاد: اعدل، العدل.. العدل!!

- لقد تجاوزت كل الحدود ونفد صبري عليك يا ابن العربي.. يا قائد الحرس، خذ هذا الشيخ الخرف أنزله بسجن القصر إلى أن نبتَّ في أمره!!

المرسوم الأخير:

«يا أهل المدينة، يا كبار تُجارها وساداتها.. اجمعوا واسمعوا وعوا. أصدر السلطان النوري سلطان البلاد، أطال الله بعمره وسدد خطاه وثبت ملكه، مرسومًا سلطانيًّا قرر فيه سجن سلامة العربي وكل من لجأ إليه أو سانده من عمال ديوان المظالم أو غيرهم، ويُمنع بقية العمال من العمل لستة أشهر كاملة؛ لتقاعسهم في إتمام التشييد في المدة السابق تحديدها.. كما كلف جلالته الوزير رفاعة السنهوري وزير البلاط السلطاني وكبير تجار التحف والأنتيكات، والأمير عطوة قليوب كبير طائفة البنائين، بإتمام مهمة تشييد ديوان الاستشفاء في مدة لا تزيد عن عام هجري، بجانب الانتهاء من ديوان المظالم. والحاضر يُعلم الغائب».

ثم تكرر الطرق والنداء بجميع أنحاء المدينة حتى علمت كل فئات المدينة بخبر المرسوم السلطاني العاجل.

***

شئون الطلبة

قُرابة العاشرة صباحًا.. تستعد شمسُ الصيف لمزاولة حُرقتها. تُسلط أشعتها الحاميه فوق مقدمة السيارة أثناء صفِّها أمام البوابة الرئيسية، التي ابتلعتنا خمس سنوات- كحوت يونس، حتى أنجانا الله من الغم!

لم تكن البوابة الرئيسية ذات الواجهه الضخمة فاقدة اللمسة الجمالية مَحط أنظارنا يومًا. لضيق مَعبرها والتصاقها بالشارع الرئيسي صانعة أزمة مرورية لا سبيل للخلاص منها إلا باللجوء إلى البوابة الخلفيه، تلك البوابة المُحتميه بشارع جانبي تتسع حارته لسيارة واحدة في أحد الاتجاهين ذهابًا او إيابًا. يزداد الشارع اختناقًا في ظل صفّ السيارات بحذاء الرصيف يمينًا ويسارًا كبائعات هوى مائلات على الطريق زيَّن الشيطان سوء أعمالهن.

صارت الرحلة إلى البوابة الخلفية أكثر مشقة بعد انسياب الخنفساء الصغيرة المُسماة (التوك توك) في الشارع كانسياب الجراثيم في جسم ضعيف المناعة. وأخيرا بعد العرض البهلواني الذي قدمته بالسيارة، عبرت الشارع الجانبي ووصلت إلى البوابة الخلفية التي انهالت على أعتابها حفنة من الجهد والعرق والسِّباب واللعنات.

استحضرت ما تبقى لديَّ من هدوء وجُهد بعد غزوة صف السيارة تلك، لاستكمال يومي الذي لم يمرَّ منه إلا سُويعات.. لم أتوقعْ في هذه الزيارة، وهي الأولى بعد عامين من الثورة، أي جديد قد طرأ على الكلية. جديد فكري تنظيمي لا جديد من حيث الشكل والمظهر والمباني، فهذا لا يُعد جديدًا بل هو بمثابة الطالب الراسب الذي يحاول النجاح في دور سبتمبر بلغة أرباب التعليم العالي.. الفترة الزمنية بين رسوب البناء ودور سبتمبر التجديد قد مرَّ عليها أعوام وأعوام حتى فقدت نكهة الجديد، ووقعت فريسة الشُّح الحكومي.

قَصدْتُ بوابة الدخول التي لم تكتسِ برداء الشرطة بعد قرار إلغاء أمن الجامعات بعد الثورة، وعبرت البوابة مُمسكًا بظرف أصفر وسط الحجم حاضنًا الفناء القائم بالمهام الثلاث في آنٍ واحد: الحرم الجامعي، وموقف لصف سيارات هيئة التدريس، ولمزوالة النشاط الرياضي إن وُجد!

إنسانية الإنسان وحركات حياته المختلفة من نفس لأخرى، وبصمة أفعال بني آدم غير كافية لإثبات وجودك وهويتك في قرون الهبوط إلى أعلى التي نحياها الآن.. الظرف الأصفر الممتلئ بالأوراق المشوهه بأختام الجهات والمؤسسات هو الدليل الدامغ على عدم اكتراث المجتمع بالهوية الوجودية لك في الحياة؛ فبضعة أوراق تُقِرُّ بحركة حياتك وختم في يد موظف، أصدق من بصمات عقلك وجهدك وحواسك؛ ولذلك فكلنا أتباع للظرف الأصفر، وهو سيد قراره!

يَعِجُّ الظرف الأصفر بالورقيات وشهادات الميلاد والتدريبات

الصيفية في الشركات والدورات المختلفة المسماة «كورسات»، بالإضافة إلى إثباتات الموقف التجنيدي وتصريح العمل للمغتربين أمثالي.. جُلُّ حركات الحياة مُحضرة بداخل الظرف، لم يتبقَّ سوى نسخ جديدة من شهادة التخرج الجامعية المطلوبة عند كل مَحك أو تجربة جديدة.

لحسن الحظ تزامن احتياجي لنسخ جديدة من شهادة التخرج مع بعض الأخبار المتناقلة على لسان الأصدقاء بشأن صدور حكم قضائي لصالح خريجي دفعتنا، يفيد الحكم بإضافة درجات الرأفة - المتعارف عليها في التعليم العالي- غير المضافة، أسوة بالدفعات السابقة واللاحقة لدفعتنا. وقد شرع بعض الطلاب في اتخاذ الإجراءات القانونية لاسترجاع هذا الحق.. وها هي الأخبار تتزايد عن عودة الحق لأصحابه، ولحين تلك اللحظة وأنا أسير بين طُرقات الكلية المتعرجة حول الحدائق الدائرية المنفصلة عن بعضها البعض مُتجهًا لشئون الطلبة. لم يتمسك بي اليقين بشأن هذا الحكم القضائي وجدية تفعيله، ويبدو الأمر بالنسبة لي ثانويًّا من حيث الزيارة، فطلبي لاستخراج نسخ من شهادة التخرج ليس مرهونًا بتلك الإشكالية، وإن كان يا حبذا لو صدق الخبر.

ترجلت بِخُطا ثابتة هائمة بين الأيام والذكريات، كلما وقع بصري على بُقعة تحمل بين أركانها حدثًا وواقعة ما تتهيج لها النفس نشوةً أو ألمًا، فالسنوات الخمس المُنقضية في أحضان الكلية مليئة بما شكَّل السريرة، وروى بذرة خبرات الحياة، وضبط إرسال العقل على موجات تقلبات أحوال الدنيا.

مسرح العمليات.. مبنى وسطي النشأة لا عتيق ولا حديث، يلتصق بالبوابة الرئيسية، أي ما قُطع بالسيارة في الخارج سيُقطع ترجلًا في الداخل، يتكون المبني من أرضي وثلاثة طوابق.

الطابق الثالث والأخير سري للغاية. ممنوع الاقتراب والتصوير، كئيب المشهد بحوائطه المتسخة وأرففه المصمتة القديمة، الممتلئة عن آخرها بلفائف الأوراق المُحكم ربطها. هو الطابق المُفعم بآمال ومخاوف الطلاب، المحتفظ بذخائر مجهودهم وأوراق امتحاناتهم. لا أذكر رؤيته إلا مرة وحيدة تائهًا، إنه مهيب الركن «الكنترول».

الطابق الثانى، طابق «اللي عِلي عِلي» بلمباته الموفرة المعكوس نورها الباهي على صبغ الحائط ناصع البياض، الغرف المنمقة بالستائر حاجبة حرارة الشمس، جوها الخريفي المنعش بمكيفات الهواء، فضلًا عن الأرضيات المُغطاة بالأنيق من السجاد الزاهي دومًا من أثر النظافة، وصولًا للمكاتب راقية الذوق مُرتبة الهيئة.. يتوسط الطابق مكتب ذو باب خشبي أصفر فاقع لونه يثير هيبة القاصدين، عُلِّق على يمينه من أعلى لافته هوية نُقش عليها عبارة «عميد الكلية».

أما الطابق الأول والأرضي فهما عقر دار موظفي شئون الطلبة، بيت القصيد وسبب الزيارة الطارئة.

تقدمت نحو الشبابيك المغلقة بقضبان الحديد المفرغة بارتياحية شديدة، نظرًا لتزامن حضوري مع الإجازة الصيفية، فلا زحام أو أية طوابير خانقة تُغلق اليوم وتذهب بالجهد وتصيب بالملل. وربما تململ كارهو الانتظار أمثالي وانصرفوا قبل قضاء حاجتهم. لم أجد

أمام شباك الخريجين سوى اثنين أنهيًا ما قَدِمَا من اجله بعد لحظات من حضوري، لأتصدر قضبان الشباك الحديدي مقابلًا لإحدى موظفات شئون الطلبة العابسات الناعسات. يبدو أن حضوري كان ثقيلًا على نفس السيدة التي أسندت يدها على خدها في ضجر، وقد بادرتني بلوي شفتيها وكأني محضر من المحكمة جئت جالبًا ورقة طلاقها!!

لم أهتم كثيرًا بتعبيراتها الجافة، وبادرتها بالحديث فورًا:

- السلام عليكم.. لو سمحت عايز استخرج شهادة تخرج جديدة.

- انت دفعة كام وقسم إيه؟

- دفعة 2010 قسم مدنى.

- مش عندي دفتر النتيجة.. اطلع الدور الثاني عند العميد اسألهم كانوا بيضيفوا درجات الرأفة!!

- شكرًا..

شعرت وكأني حمل ثقيل على قلبها وأرادت إزاحته، ولكني لا أملك سوى تصديقها إلى أن يثبت العكس. كان لها ما أرادت وصعدت إلى الطابق الثاني الهادئ تمامًا إلا من همسات حديث جانبي بين سكرتارية العميد اخترقته فور دخولي متسائلًا السؤال نفسه، شهادة التخرج، معللًا صعودي بدفتر النتائج، فجاءت الإجابة بلا تردد أو مراجعة للأمر بأن النتائج انتهت منذ أكثر من أسبوعين، وعليَّ أن أسأل عن الدفتر بالطابق الأول!

دبَّت الريبة بداخلي وهبت حولي رياح غضب حاولت إخمادها قدر المستطاع.. اقتحمت الطابق الأول مستفسرًا عن ضالَّتي، فقوبلت بالاستغراب والتعجب وكأني كائن فضائي هبط من العالم الآخر للتو، ثم بعدما زال الاستغراب أشار عليَّ أحدهم بالرجوع لموظفة الدور الأرضي لمراجعتها وحثها على البحث جيدًا، فهو على يقين أن الدفتر لم يغادر شباك الخريجين منذ الانتهاء من إعادة توزيع الدرجات.

تنهدتُ تنهد من نفد صبره وقفزت على السلالم قفزة مارد خرج من كهفه لعلِّي أتخلص من شحنة غضبي السارية بدمي من وراء بحثي عن ذلك الدفتر المشئوم. مر من الزمن ساعة منذ وقوفي أمام هذا الشباك اللعين الذي عُدت إليه مرة أخرى بوجهٍ ضجر حانق لا سلام به ولا تبسم!

وجدت السيدة كما تركتها، يدها على خدها وكاد النعاس أن يلتهمها، ولكني سبقته بنبرة حادة:

- أنا طلعت الدور الثاني والأول والسطوح ولميت الغسيل وسيأت الأرضية وكل البشر اللي فوق قالولي ان أم الدفتر عندك هنا!

- انت بتزعق كده ليه؟ قولتلك الزفت مش عندي! هما يضيعوا الدفتر ويلبسوا إهمالهم فينا! دي حاجة تقرف!!

- طيب أنا هطلع للعميد اشوف حل في التهريج ده!!

- روح لي انت عايزه هتخوفنا يعني ولا إيه؟!!

لحظة الغضبَ مثل الموجة الغادرة الآتية من بعد سكون ولُطف

لتقتلع جذور من يقف أمامها، لحظة لها ميلاد منفصل وحياة خاصة وشيطان موكل بكل تفاصيلها، مُجاراته طيش وصده من عزم الأمور.

اتجهت لمكتب العميد ودخان الحنق يتصاعد بسُحب نفسي كعادم سيارة خرب شكمانها أو حريق لقش الأرز! لم يكن لديَّ طاقة جديدة لأنتظر تصريحًا بالدخول لمكتب العميد. تفأجا السكرتير بشخص مجهول يطرق باب العميد وينسرب إلى غرفته رافضًا كل محاولات إثنائي حتى رضخ العميد لثورتي العارمة. تفهَّم سبب ثورتي بعدما قصصت عليه حكاية الدفتر المختفي، وزاد على التفهم استنكار وسخرية من اختفاء الدفتر، ثم تحدث هاتفيًّا إلى الرئيس المسئول عن شئون الطلبة وكلفه بمصاحبتي وإنهاء هذا الهرج فورًا!

شكرته على حسن الاستقبال والتحمل.. ذهبت مع الرجل المكلف بحل اللغز وسط تأكيداته المتكررة أن أمر الدرجات قد انتهى واستلمه جميع الموظفين لاستخراج الشهادات المطلوبة.. كنت حينها لا ثقة لديَّ في أية وعود أو تفاصيل، فلم أُعقِّب عليه سوى بالترقب والصمت.. دخل الرجل إلى غرفة الموظفين ثم اقترب من المكاتب باحثًا عن الدفتر اللغز، لم يمر سوى لحظات حتى انتشل الدفتر من تحت ذراع العابسة، لتسقط يدها من فوق خدها أخيرًا!

المفتون

ما قلَّ عن الاعتدال عجزٌ وظلمٌ، وما زاد وطغى عصفٌ وفتنةٌ.

الصدفةُ غيبٌ. ولكنه غيبٌ يتمنى الناس حدوثه على غير عادة الخوف والحذر من الغيبي الضبابي غير المعلوم. ربما لارتباط الصدفة في الأذهان بالبدايات المفاجئة والتحولات الوردية والنهايات السعيدة، إلا أنها في بعض الأحايين تجلب الهموم الثقال خلف ستائر السعيد من الأحداث!!

هجمت الصدفة على الشاب العشريني المُهندم كثيف الشعر رياضي الجسم مفتولِ العضلات، انتظره قدره المحتوم عندما وقف المصعد قبل أوانه المُحدد من قِبَله، وانفتح الباب على وجهٍ مُشرق صبوح فاتن الجمال. صاحبة الوجه شابة أنيقة بدا عليها مظاهر الثراء والاستقراطية، ممشوقة القوام، مثالية الوزن، شقراء، عيناها النجلاوان زرقاوان كالبحر في هدوء أمواجه تسرُّ الناظرين.

انجذب لجمالها منذ الوهلة الأولى، وبراعة البوح بأنوثتها الناضحة عليها.. تبادلت العيون الكلمات، ولفت انتباهها من خلف عدسات نظارتها السوداء الثمينة مظهره الأنيق الدال على ثراء وارتياحية طبقية.

الأنوثة كنز الأنثى الدفين بفطرتها منذ خلق الله حواء. الأنوثة هي دلال الجمال ورقة الطبع ولطيف الكلام وعذبه.. برغم امتلاك جميع الإناث لفطرة الأنوثة - بتفاوت نسبها- قليلات منهن من تمتلك قدرة التعبير عنها بلا كلام، وبراعة البوح بامتلاكها من غير ابتذال أو تدنٍّ!

علم بكونها قاطنة جديدة بالعقار، وتكرر اللقاء وزاد الشغف وتوطدت العلاقة.. علاقة آسر الجمال بلا نضوج الحب، ومهادنة بلا عاطفة، وجاهزية مادية واهية!!

آسر الجمال بلا نضوج الحب.. ومهادنة بلا عاطفة.. وجاهزية مادية واهية!!

الحبُّ نعمةٌ كبرى وبليةٌ شديدةُ الوطأةِ. نعمةُ إذا امتزج القلب بالعقل، والجمال بالروح، والقول بالفعل. بليةٌ شديدةٌ إذا صارع القلب العقل، وتوحد الجمال بالجسد، وصارت كلمات الحب فقاعات هواء بغير فعل يدعمه ويُثبته.. العقل ميزان العلاقةِ بين الرجل والمرأة، فهو الكاشف لما يُخفيه طغيان القلب، ومركز اتزان هليمان الشهوة وزيناتها.. إن اختفت بصمته في أي علاقة كانت، أصابها الخلل إما بالزيادة أو بالنقصان.

رُسمت العلاقة بين الشاب والفاتنة بدون بصمة العقل والمنطق خاصة عند الشاب. فكان منطق الفاتنة ابن بيئة طبقتها. فحواه عدم الاكتراث أو الوقوف كثيرًا عند العاطفة ما دام الشروط والوجه المادي الطبقي متوفرًا، شريطة عدم المساس بطريقة الحياة المتحررة من حيث المظهر والملبس.

أما منطقه فجاء بلا منطق على غير عادته العقلية المتزنة. فقد حبسه الجمال في زنزانة خانقة، أغلق منافذ الإدراك والوعي، عشق المظهر وفُتن بتفاصيل الجسد وقوامه، تاركًا خلف جمالها الفكر والطبع والروح، كالسائر في وضح النهار مغشيًّا عليه، أو كالذي سُلط على بصره وبصيرته ضوءٍ عالٍ خادع جعله أعمى لا يقوى على رؤية الحقيقة أو مواجهتها.

العيب في بني آدم نعمة، والعيب في المحبوب وقاية من الفتنة والتعلق بسراب الكمال، فإن فتنَك في المحبوب جمال، هذَّب العيب النقيصة التي لا مفر من وجودها حبُّك وتعلقك، وإنْ غابت البصيرة القادرة على كشف العيوب أصبح المحبوب فتنة شديدة قد يخسر صاحبها نفسه ومن حوله.

كبرت فتنته بجمالها وبقي أسير أحواله وتفاصيله، دليل استبداده وفورانه، حتى تخلى عن مبادئه التي اعتبرها في الماضي لا مساس بها، وافق على أشياء تتعارض مع ما تربى ونشأ عليه إرضاءً لفاتنته، كالتحرر في الملابس بداعي عدم الانغلاق والرجعية، وأن الجميلات فقط صُنعت من أجلهن الموضة وتفانين الجمال المتنوعة كما تُحدثه دومًا بتلك الكلمات البائسة مستغلة مُخدر الجمال وفتنة الشهوة الحمقاء الحاكمة على كل أركانه وحياته، حياته التي توقفت حركتها إلا عن السعي وراء الظفر بجمال فاتنته الخداع.

أخذته أمواج نحو الغرق، مضى في طريقه كالمسحور ضاربًا بنصح الناصحين عرض الحائط، لا يقيم وزنًا سوى لرغبته الآنيَّة الطائشة..

مرت الأيام وتحقق له ما تمنى، وظفر بفاتنته البراقة، ذلك الانتصار الهش المبني على سعادة لحظات لا حياة عمر بتقلباتها بين الحلو والمر.

تجلى الفرق الفكري من حيث النشأة والعادات بينهما، وإن تقلص من حيث الثراء.. إلا أن تلك الفوارق في صميم العلاقة، وسيأتي الصدام بسببها لا محالة.. لا محالة.

كعادة الدنيا وإنسانزمية الإنسان بها، تنكشف الغشاوة بصدمة الحقيقة بعد الوصول والتملك. ذلك ما وقع فيه الشاب المفتون مع مرور النشوة الأولى وهدوء صخب الجمال وفتنته، تحولت وتبدلت حياته حين أفاق من غفوته متأخرًا وقد رأى سبب عذابه اليوم هو نفسه سبب عذاباته الأمس، بالأمس كان جمال الجسد كل المنى، واليوم صار الجمال ذاته وحده بدون الروح هو كل الغربة والفقدان.

أفاق الشاب المفتون بسبب أزمة العزوف عن الإنجاب بداعي الجمال.. عجيب حال الإنسان في هذه الدنيا التي تستحق دونيتها، يغطُّ في غيبوبة فتنته لغرض ألحَّ عليه، ويستفيق منها لأجل غرضٍ آخر. فهو ماضٌ فيها متسندًا على حاجته الفانية، ولا تهدأ له حاجة قط، ولا يزهد في أغراضه، ولا سبيل للانتهاء من إعيائها.. فالغرضُ مرضٌ!!

بجوار العزوف عن الإنجاب بداعي الجمال، كان الإسراف الشديد للحفاظ على الجمال، والإهمال في شئون الحياة وشئونها الخاصة في سبيل الاهتمام بالجمال، وعندما ذاق طعم الجمال وأفاق من سُباته،

بحث حوله عن حياة وسطية تعود ونشأ عليها، حيث لا غلو في التحرر ولا تشدد في المحافظة، كيفما وجد والدته وكامل أسرته منذ الصغر، بحث فلم يجد ما يعيد له حياته الأولى.

أصبحت الحياة جحيمًا. صار مثل الشبح، أو كالذي غيَّر جلده فلا يعرف من هو، فقط حارسًا لجمال امرأة أودت بحياته إلى التهلكة، ولم يَبْقَ له إلا تحديد مصيره، إما الجنون وإما الإنتفاضة على فاتنته وفتنته معًا!

كُشك ست الكل

مُبهر هو ليلها، يستزيد من نورها، محيرٌ هو شعبها، ليس على قدرها، أملها تجده في يأسها، وتشعر باليأس بين يدي أملها. يتأرجح حالها بين أمل لم تكن تتوقعه، ويأس صَعُب عليك تَخيله، كأنها مجبولة على المتناقضات، ذات الوجه الصبوح، مصر.

عجيب ليل هذا البلد! ليل يبعث الطمأنينة في النفس والتدبر في العقل والحنين في القلب، ويمزج كل تلك الأحاسيس في دوار الفكر الذي يدور بك حول تأمل أوضاعها ما دُمت سائرًا وسط أحيائها!

لكل حي من أحياء المحروسة روح ومذاق مختلف. تشعر بالتراث والعراقة بين أحياء مصر القديمة الشعبية، مرورًا بوسط العاصمة والمباني التي تشبه عواصم أوروبا في قرون النهضة الأوروبية، وصولًا إلى الأحياء جميلة المظهر حديثة النشأة نسبة إلى الأحياء الأخرى، وبالطبع في مقدمتها ما أُحب أن أطلق عليها "ست الكل" لرقي طلَّتها، مصر الجديدة.

يهفو نسيم الشتاء العليل أثناء ترجلي في طرقات "ست الكل" منتظرًا أصدقائي لقضاء بعض الوقت ترويحًا وتجديدًا للنشاط. الكُشك اصبح سمة ثابتة في جُلِّ أحياء مصر. منفذ بيع صغير يتكسب

صاحبه من صغائر البضائع تناسبًا مع حجم هذا الكُشك!

توقفت عند أحد الأكشاك أشتري ما يُصبر جوعي من بسيط الحلوى وغازي الشراب. فور وقوفي أمام الكشك أخذ نظري هذا الشاب النبيل قصير الشعر كثيف اللحية اتباعًا للموضة، ذي النظارة ملونة الهيكل، الذي بدت عليه النباهة وحُسن المظهر، عليه أمارات انتماء للطبقة المتوسطة من المجتمع، إحداها مواكبة ملابسه لأحدث طراز الموضة الشبابية، مما أثار فضولي وبادرته بالسؤال:

- أنت صاحب الكشك؟!

- آه الكشك بتاعي.. أؤمر حضرتك؟!

سكتُّ برهة كسا الاستغراب أثناءها وجهي، فرآهُ في عيني قائلًا:

- مستغرب؟!

- الصراحة آه!! سامحني معلش بس مفيش حاجة قصادي تقول كده.. أو يمكن أول مرة أشوف التركيبة دي! انت ساكن فين؟

- هنا في مصر الجديدة.

- كمان؟! وعايزني مستغربش! استنى بقي اجيب حاجة اشربها من التلاجة واجي تحكيلي.

- تنور يا صاحبي.

- اسمك ايه؟! وعندي فضول اعرف الحكاية.

- اسمي نور.. أنا مش عايزك تستغرب خالص، اللي حاصل ده

طبيعي جدًّا دلوقتى. انت فكرك يعني لما تنزل مصر جديدة دلوقتي هتتكعبل في الخواجة البارون مثلًا!

- لا طبعًا.. انت دارس ايه؟

- أنا معايا ليسانس آداب من سبع سنين.

- دورت طبعًا على شغل!!

- دورت!!.. أنا قلبت الدنيا وخبطت على كل الأبواب، وقبل ما تقولي ما روحتش ليه شركات المحمول والجو ده.. أصل مش كل واحد ملقاش شغل هيروح يشتغل كول سنتر! مش تقليل من الشغلانة طبعًا، اديك شايف انا واقف في كشك في الشارع! لكن الفكرة فكرة لوية الدراع اللي في المجتمع وقلة الرغبة جوه البني آدمين، إن اللي مش لاقي شغل يحبه أو يقتنع بيه يروح يشتغل شغلانة معينة والسلام لحد ما بقت موضة.. صدقني مع الأيام الرغبة والطموح بيموتوا جوانا!

- أفهم من كده انك عامل الكشك ده من ساعة ما اتخرجت؟!

- يا ريت.. كان زمانه بقى سوبر ماركت! ده بقاله سنة وكام شهر بس.

- أمال كنت بتعمل ايه السنين اللي فاتت دي؟!

- زي أي شاب من اللي شايفهم قدامك على القهوة دول.. قضيتها على القهوة مع حجرة الشيشة وطرقعة أواشيط الطاولة وبولات الكوتشينة وفي البيت النوم لحد الضهر.. سحبة بتسحبك زي الدوامة بالظبط.. عارف بتبتدي ازاي؟!

- ازاي؟!

- أول سنتين بعد التخرج الأمل بيبقى هيفرتكك فيهم وبتحس انك خارج للدنيا تطير طيارات ولا تعمل رجل الكيكي! تصحى كل يوم تلف على الوظائف ترميلهم (CV) وطبعًا فاضي أصلًا عشان انت يدوبك لسه بادئ حياتك وعلى رأي الناس خفيفة الظل اللي تقابلك وانت لسه متخرج ويستخفوا يقولك ياه انت لسه بالسلوفانة.. طيب شكرًا يا سيدي! مع كل يوم متوصلش لحاجة فيه تبدا تيأس واليأس يزيد والاهتمام يقل لحد ما توصل للبلادة.. تبقى جبلّة كده.. نازل من بيتك العصر وراجع الفجر ومقضي حياتك على النواصي والقهاوي ولا على بالك أي شيء.. على كده عدت الأيام عليَّ زي عمرو دياب ما بيقول!!

- طب نقلة الكشك دي حصلت ازاي؟! بس قبل ما تقولي عارف يعني إيه رجل الكيكي؟!

- الصراحة لا معرفش.. أهي كلمة من ضمن كلام كتير بنقوله واحنا مش فاهمين معناه، أنا طول النهار واقف في الشارع بسمع الحلو والوحش، اللي ليه معني وليه مالوش.. قولي يعني إيه رجل الكيكي يا باشا؟

- تصدق يا نور ان "رجل الكيكى" قدامك طول النهار خصوصًا انك في مصر الجديدة!

- وده ازاي؟!

- شايف العمارات القديمة اللي مالية مصر الجديدة؟ عمارات خواجات

زمان اللي على شكل بواكي دي في روكسي وأغلب مصر الجديدة، وأكيد عارف العمارات الشيك بتاعة وسط البلد.

- آه عارفهم طبعًا.

- أهو التشكيلات الفنية والنقوش اللي متزينة بيها العمارات دي وخصوصًا النقشات اللي على البلكونات اسمها "رجل الكيكى".. وعشان النقشات دي محتاجة دقة وخبراء في مجال المعمار اتسمت بالاسم ده وبسبب كده الخديوي إسماعيل بعت جاب خبراء من أوروبا لما كان عايز يخلي وسط البلد أحلى من باريس، حتى ساعات يسموا الفنانين اللي بيدقدقوا على النحاس في خان الخليلي رجل الكيكى.

- منك نستفيد يا باشا.. مقولتليش اسمك ايه وبتشتغل ايه؟

- اسمي مهاب.. طبيب نفسي.

- تشرفنا يا دكتور.

- أنا اللي اتشرفت اني عرفتك يا نور.. بس عارف كمان ان كلمة دكتور دي معناها الأصلي مهندس، لكن اللي بيداوي المرضى اسمه طبيب.. كمل بقي نقلة الكشك حصلت ازاي؟!

- بدأت من ثورة سوريا وحصلت لما أبويا حب يرفع التليفزيون شوية عشان رقبته وجعته!!

- العجل في بطن أمه.. والفيل في المنديل!!

- ههههههههههههه.. حلوة يا دكترة.. بس حقيقي بدأت لما حصلت ثورة سوريا والضرب والدمار حل عليها.. من غير لتّ وعجن

بقى كتير ومين مع مين والرغي ده سوريا ادمرت والأهالي اتشردوا وفيهم اللي سافر على تركيا وفيه اللي جه على مصر، هما لا حول لهم ولا قوة محدش فيهم بإيديه يختار يروح فين.. المركب اللي تودي!

- ماشي دي سوريا اللي لسه مش فاهم علاقتها دي.. إيه حكاية رقبة أبوك بقى؟!

- رقبة أبويا بتوجعه واشتكي ان التلفزيون واطي.. اتصلت بنجار لسه فاتح جديد ورشته محندقة جنب البيت، وكانت المفأجاة يا دكتور طلع النجار سوري من اللي بيوتهم وحالهم ادمر وخرب في سوريا وجم على مصر.. لا وإيه! طلع أسطى كبير في سوريا وكان عنده بدل الورشة معرضين وتلاته!!

- لا يا راجل؟!

- تخيل! سلام في كلمة في اتفاق في الشغل بقينا صحاب وحكالي عن ثروته اللي خدتها الحرب وراحت، ووِرشه اللي بقت كوم تراب، وحياته اللي رجعت لخط الصفر.. سألته بعبط: انت ازاي ممتش لحد دلوقتي ولا جرالك حاجة؟ تخيل قالي إيه؟!

- إيه؟!

- بكل ثبات وإيمان حسسوني اني حشرة في الدنيا دي، يمكن الحشرة أفيد! قالي: فيه رب موجود وبتنفس كويس وعيالي سُلام.. يبقى اموت ليه واخسر إيماني وحياتي وانا اقدر ابتدي من جديد؟! نزل من البيت وسابني زي اللي واقع في حفرة غويطة مش عارف يطلع منها.. أحيانًا ذاكرتك بترجع لما رأسك تتخبط زي ما ممكن تروح لنفس

السبب! أهو حياتي قبل كده كانت خبطة على راس أفقدتني ذاكرة الدنيا والحياة، والراجل السوري ده ربنا بعتهولي عشان يخبطني على راسي ترجعلي الذاكرة!!

- لله في خلقه شئون.. إيمان الرجل وقوة عزيمته أقوى من أي دمار وحرب لو اتوزعت نصها على الشباب أكيد الحال هيتحسن!!

- أحب اقولك يا دكتور انه اشترى ورشة جديدة أكبر والدنيا ضحكتله تانى.

- وانت الدنيا ابتدت تبتسملك وعملت الكشك ده.

- فكرت تفكير عملي من غير ما ابص لأي اعتبارات تكتفنى.. قولت وفيها إيه؟ أبتدي بكشك ومين عالم يمكن يبقى هايبر كبير من اللي بنروحهم دول!

- هيكبر وهتكبر معاه يا نور.. إنت إنسان مجتهد وربنا هيعطيك إن شاء الله.. أنا فخور اني اتعرفت عليك.

- من ذوقك يا دكتور.. الشرف ليا.

انبهرت لما سمعت من هذا الشاب الذي هدأ ليبني الأمجاد، ولو لم تأتِ على مراد نفسه وما كان يتمناه. وانصرفت وأنا أفكر في حال هذه الدنيا تفكير المدهوش المتسائل.. كيف تجذبنا الحياة لساحة الإجبار، ساحة الخروج من حرية الاختيار وفتوة القدرة والموهبة، والدخول إلى مرارة التكيف وحبو الاكتساب؟! تُجبرنا أحيانًا كثيرة أن نرتدي أثوابًا لا تناسبنا، ضيقة كانت أم واسعة، نسبح في بحر عميق على

هيئة قطٍّ بري، أو نتسلق الشواهق ونطير بعباءة تنينٍ ضخم، ويظل البحث والتنقيب عن نورٍ ساطع يتلقفنا أو نتلقفه نحنُ لينير الخفي من قدراتنا ونسير على إثره في طريق التحليق، بلا إجبار أو تكيُّف أو اكتساب!!

دمعة ساخنة

اتجه خالد إلى عمله مستقلًّا سيارته الفخمة.. عطره الفرنسي الفواح يملأ أركان السيارة أناقة.. بدلته وربطة عنقه تأخذ العيون ويضفيان عليه سحابة مهابة ونجابة.. حُسن المظهر دال على صاحبه بالخير إلى أن يثبت العكس أو تَصدُق الدلالة بطيب الفحوى والسريرة.. خالد رجلٌ ثلاثيني قارب عقده الرابع على الانقضاء، متوسط القامة كثيف الشعر، يرقد الدهاء بقعرِ عينيه العسليتين، جبهته عريضة، حليق الوجه دومًا بحكم عمله ومراسيمه المعتادة. يشغل خالد منصب المدير المالي لإحدى شركات المقاولات الكبرى، يُشير إليه الجميع بالبنان والتفاني في عمله، مما أيده في تجاوز من هم أكبر منه عمرًا وأقل كفاءةٍ، ودعمه أيضًا للحصول على الترقية المستحقة الواحدة تلو الأخرى، رغم صغر عمره نسبةً لمنصبه الهام بالشركة.

تزوج خالد منذ عشر سنوات من حبه الوحيد "لبنى"، ورزقهما الله بآسر وروديئة. لبنى امراة رقيقة تجاوزت الثلاثين من عمرها بعامين، صاحبة جمال شهد له البعيد والقريب، وجه مشرق يميل للاستدارة، عليه آثار نضارة، وعينٌ مشويةٌ بخضرة تذيلها أنف منمق واعتلاها شعر كستنائي أسود اللون ناعم الملمس، فضلًا عن قوامٍ متناسق رشيق تعد المحافظة عليه هاجسًا يهدد أمن لبنى النفسيً. تخرجت

من كلية العلوم، ومثلها مثل الكثير لم تخترها وفق رغبتها بل رغبة مكتب التنسيق، فغابت عنها الإرادة الكافية للتعايش والتفوق؛ لذا فور تخرجها وزواجها قررت التفرغ لرعاية خالد وكنزي حياتها: آسر وروديتة.

حضر الباص الخاص بمدرسة آسر وروديتة في موعده المعتاد، السابعة صباحًا، تزامنًا مع توجه خالد للعمل.. قبَّلتهم لبنى جميعًا وأعادت على مسامع الصغيرين تنبيهات ووصايا كل صباح. أن يُحافظا على أنفسهما، ويأكلا الطعام كله، وأن يكون آسر دومًا بجانب أخته إذا احتاجت إليه، وألَّا تفعل روديتة ما يُغضب أخاها الكبير.. نسيج الرجولة تُغزَل خيوطه منذ الولادة ويقبع في صدور وتكوين الصبيان إلى أن تتكالب عليهم الطبيعة والغريزة فتنضح وتتجلى أقوالًا وأفعالًا.. الثانية أهمُّ من الأولى.. أما الأنثى فتولد ونُشدان الاحتواء والحماية من الرجل مطبوع بفطرتها ملتصق بتكوينها التصاق الروح بالجسد، وتلك عبقرية التلاحم والتكامل الإنساني البديع الموصول بيننا عبر الإنسانِزم!

خلا المنزل بلبنى كعادة كل نهار، ولكن هذا النهار مختلف، كانت وحدة نفسها وغربتها أكبر وأقسى من وحدة المنزل الفسيح. ثمة ثقل تشعر به فوق صدرها يسحب روحها وعشر سنوات مضت إلى بئر سحيق، ولربما إلى حيث تجهل.. المجهول دائمًا يخيف، ويلزمه طمأنينة الحاضر المعلوم لمواجهته بنفسٍ حذرة هادئة.. من أين تأتي لبنى بالطمأنينة؟! بذلك جال خاطرها وهي صامتة قرابة الساعة تنظر لصورة عُلِّقت بصالة المنزل، صورةٌ حين كان ربيعها حاضرًا

وزهورها يانعة.. صورة زفافها!

عروس بهية الطلة يمسك بيدها في حب وحنو، حبيب القلب والمختار من دون الجميع خالد ليكون شريك العمر.. امتلأت جوارحها بالشجن، وحل حزن دفين وهي تتأمل الصورة تسأل نفسها عما تغير وتبدل في حياتهما للحد الذي يجعل خالد ينسى يوم زواجهما ويمر عليه مرور البخلاء لا الكرام.. اليوم الذي طالما حلموا به واحتفلوا به معًا لسنوات!

أهو العمل؟! أهو الروتين؟! أهو الإهمال؟!.. أم كل هؤلاء تكالبوا على قلبه حتى نزعوا اشتياقه لي.. كم أنا تعيسة في حبك يا حبيبي!!

اثنان لا يجتمعان قَطّ وإن جمعتهما الحياة لا بد من مفارق: "الإهمال وامرأة"!!

البدايات دائمةُ الصخب واللذة، ونحن عليها متهافتون. نلقي بعظيم تهافتنا نحوها مقبلين لا مدبرين، بكلّ ما هو جميل وثمين نملكه بداخلنا؛ لعلنا ننهل من أحاسيس وتبسمات وبساتين ألوان مما افتقدته أيدينا من قبل البدايات! لا شيء يضاهي الإحساس الأول عند كل بداية، إحساسٌ صافٍ رقراقٌ طُهرت الشوائب منه وفرَّت منه المصالح، لا منشود فيه سوى السعادة والعطاء. تلاقي العيون بغير ميعاد، تلامس الأيدي لأبسط الحجج، الهدية الأولى، وكلمة الحب الأولى، والقبلة الأولى، والخوف الأول من الفراق!! ما أجمل البدايات! وما أسرعها!

عادت بقلب المحب تعطيه عذر انشغاله بسبب العمل ومشاكله التي

لا تنتهي، والأعباء التي يتحملها جراء منصبه، مُطبقة فضيلة التغافل - وهي نعمة كبرى- عن غيابه شبه الدائم عن المنزل لفترات طويلة، وسهره مع أصدقاء المقهى كل ليلة.. ألقتْ بكل هذه المنغِّصات في الماء المالح وقررت أن تبدأ بإعادة الود وريِّ شجرة الاشتياق المفقود.

كلمته هاتفيًّا بتودد طالما أطرب أذنيه وطلب منه المزيد.. ردَّدت على مسامعه بعض كلمات الحب والغزل القديمة التي جمعت بينهما لأيام، لاحظت خفقان قلبها واضطرابها أثناء حديثها وكأنها تُحدثه للمرة الأولي! صدى هذا الاضطراب زاد من قلقها في بادئ الأمر، ولكنها تداركت القلق بالتحايل عليه.. ربما تعود حياة الاشتياق بينهما لبداياتها منذ خفقة القلب الأولى.

هل يعود الزمان يومًا؟!

تحدثت إليه لبنى بنبرةٍ يحدوها الأمل طالبة:

- حاول يا حبيبي تيجي بدري النهاردة.. ممكن؟!

- حسب ظروف الشغل.. بس اشمعني؟!

- لما تيجَي هتعرف.. خليها مفأجاة بقى بس وحياتي حاول تيجي بدري متنساش.

- حاضر يا لبنى هحاول إن شاء الله.. سلام بقى مش فاضي!!

تعمدت أن تخبره بتحضيرها لمفأجاة، ممنية النفس أن يهتم ويسألها بفضولٍ عمَّا تقصد، أو لعله يتذكر ما نسيه في الصباح ويُسمعها ما يزيل همها ويثلج صدرها ويُفرح قلبها ويرجع بالأمر كله كما

كان. أجاب بفتورٍ زاد من ألمها وتنهدات وجعها. كادت أن تختنق حزنًا عقب انتهاء المكالمة. لكنها كبتت اجتياح الحزن وألقَتْ به مؤقتًا وراء ستائر آمالها المزخرفة بالقلقِ في قضاء ليلة احتفال تُعيد سعادة السنين الأولى وتذهب بالفتور الذي دبَّ بحياتهما كوحشٍ كاسر أراد الفتك بها.

تجاوزت ما تشعر به من ضيق، بالنهوض في نشاط يحفُّه الأمل باستعادة الأيام الجميلة المنصرمة، التي لم تغب تفاصيلها الدقيقة عن بالها طوال اليوم، تطهو أحبَّ الطعام إلى قلبه، وتتذكر كيف كان يغازلها ويخبرها بما شده إليها وجذبه فيها دون الأخريات، تبتسم حين ترى نظرة عينيه وهو متلهف ليقص عليها ما يشغل فكره، ويأخذ رأيها ومشورتها في أمور حياتهما، وتفتُر الابتسامة حين تذكر ما آلت إليه علاقتهما من فتور. فقد صارت المشورة من أصدقاء السهرات والمقاهي الفاخرة أحب إليه وأنفع له من مشورتها، تعرف خطواته بعد حدوثها، حتى آخر إنجازاته في العمل، منصبه الجديد، آثر الاحتفال به مع أصدقائه عن إدخال السرور عليها، رغم أن حلم الصعود والنجاح كان فيهما مشتركًا، وكانت المؤازرة والمساندة شعار لبنى لزوجها وتعتبرهما من أهم واجباتها نحوه!!

فرغت من صنع ما لذ وطاب من طعام وحلوى تناسب اليوم، وتزينت كعروسٍ وكأنها تنشد مبتدأ الأمر بكل تفاصيله الوردية الجميلة وحميميته موفورة المودة والعشق. باتت المفاجأة جاهزة وكل شيء على ما يرام، ولم يَبْقَ سوى عودة خالد ليعود الود الغائب.. نظرت لعقارب الساعة فأبلغتها بقرب انتهاء عمله، شعرت بنشوة

المفاجأة وأبحرت خيالاتها تهيم توقعًا كيف سيستقبل خالد المفأجاة؟! بالابتسام والفرحة، أم سيقبلها ممتنًّا وربما تذكر المناسبة فيقدم لها العذر بحبٍّ فتقبله على الفور وتبرر له وتعذره بفطنة زوجة تريد الإصلاح..

مضى ساعتان بعد انتهاء عمله ولم يحضر!!

ما زال اليأس بعيدًا عن قلبها تتلهى عنه بصحبة آسر وروديئة والانشغال بطفولتهما البرئية، لعله يحضر فتهدأ الظنون وتنال المراد.

هجم الليل كذئبٍ جائع على فريسته. الليل غريبٌ الأطوار، يأتي على العشاق هادئًا شهيًّا بالسُّهدِ والفكر، ويهجم على المهجور بالصخب والكآبة والقلق والحزن. الحزن الذي كسا وجهها وهي جالسة صامتة أمام الشباك بعدما انتصف الليل وبرد الطعام وشحبت زينتها!

لمحته يصفُّ السيارة أمام المدخل، أغلقت نور الغرفة، أعطته ظهرها متصنعة النوم، وما زالت على أمل أن يصرح بأي عذر عن عدم حضوره.. فقط تذكّر نسيانه واسترضاء خاطرها يرضيها! دخل خالد المنزل بهدوء واتجه نحو غرفة النوم، بدَّل ملابسه في عجالة واستلقى على السرير غارقًا في نومٍ عميق، بينما لبنى بجانبه غرقت في دمعة ساخنة تدلت على خديها، وقد تحاشت تدليها منذ الصباح!

زُمردة

تدلت من بين أصابعه مسبحة عدد حبَّاتها تسع وتسعون حبة، تلامس في نهايتها سجادة للصلاة خضراء اللون فُرشت تجاه القبلة وقد جلس عليها ذاكرًا. تطوف الحبات حول نفسها وتتكرر كلما استمر ذكر الله وتسبيحه. ظل على الحالة نفسها قرابة عشر دقائق عَقب إتمامه صلاة الفجر، ثم لملم سجادته الخضراء واتجه ناحية مكتبه القديم.

رشف رشفة المنهمك المتلذذ بفنجان قهوته الصباحي، ثم أخذ يقرأ في أحد كتب التاريخ المتراكمة فوق مكتبه الخشبي أرابيسك الصنع، ثمة علاقة وطيدة يفوح منها عطر الخصوصية والترابط والأصالة بين المكتب وصاحبه.. تقبع على يساره مكتبته الكبيرة المكتظة بعقول فوق العقول وحيوات فوق الحيوات، مكتبته وقفت بعرض الحائط في شموخ قلعة الجبل مقر الحكم بالمحروسة قديمًا التي ما زالت المهابة والرونق يأخذانك بمجرد المرور بجانبها.

نعود إلى صاحب المكتب والمكتبة، الحاج سلامة عبد الله، مدرس أول اللغة العربية وموجه بوزارة التربية والتعليم سابقًا، أتمَّ الستين منذ عامين وآل إلى المعاش قانونًا. تفرغ لمتعته الوحيدة، القراءة

والكتابة، خاصة قراءة التاريخ قديمه وحديثه.. يستقيظ يوميًّا على أذان الفجر المرفوعة كلماته العطرة من فوق مئذنة مسجد الظاهر بيبرس المقابل لمنزله بوسط حي الظاهر العتيق، بعد الصلوات والذكر وما تيسر من القرآن يجلس في مكتبه يقرأ لحين سماعه طرقة باب يعقبها نداء بصوت شجي مُحبب إلى قلبه: «الفطار يا أبو أحمد».. صوت الحاجة جيهان زوجته ورفيقة العمر وأم أولاده الثلاثة أحمد ومحمود وزُمردة.

أتمَّ الشريكان رسالتهما مع أحمد ومحمود بنجاح، حيث تخرجا وتزوجا ورُزقا بالبنين والبنات، ولم يَبْقَ سوى زمردة.. زمردة درة البيت ونسمته الصافية، بنت بمقتبل العشرينيات من العمر، جمالها متوسط كأمها، مدعومًا بعيونٍ واسعة براقه تخفي خلفها حياء يصحبه حفنة من العمق قد أخذته من معلمها الأول والوحيد في الحياة، أبيها!

التحقت بكلية الطب وتخصصت في قسم المخ والأعصاب، لديها من الصفاء والبهجة وحسن الذوق ما يضيف لروحها القبول عند كل من يراها، هي الأقرب إلى أبيها من حيث الفكر والمضمون، قرة عين أبيها وزمردته الخالصة كما يُحب أن يغازلها، فضلًا عن علاقة الصداقة وإرث القراءة والكتابة وحب التاريخ الذي ورثته من أبيها، وطالما داعبتهما جيهان بالمثل الشعبى: «اللي داخل بينكم خارج»!!

قبَّلتهما زمردة واعتذرت عن مشاركتهما الإفطار لتلحق بمهام يومها الجامعي مبكرًا، وتناول سلامة الإفطار المصري بشهادة الفول

المنتشي بالزيت الحار طبق المائدة الأول ومزينها، ثم أعقبه بفنجان قهوة آخر في مكتبه وسط ورقاته وكلماته.

أكمل نهاره على الوتيرة نفسها حتى قاربت الساعة الثالثة عصرًا، حين حضرت زمردة مبكرًا قبل موعدها المعتاد من الجامعة، طرقت باب غرفة أبيها طرقة رقيقة مثلها، فأذن لها بالدخول واستقبلها مُرحبًا ومداعبًا ومقبلًا خديها بحنان أبوي صافٍ كماءٍ رائق لم تمسسْه شوائب قط.

الأب حصن ابنته المنيع ومرآتها، تتعرف على الرجولة وخلاصة فحواها من خلاله، ويُسكنها هو بين ضلوعه خوفًا وحبًّا وتحنانًا، وبذلك تنشأ الأميرات في بيوت الملوك.

سلامة يعرف ابنته جيدًا، يستطيع قراءة وجهها وما يصدر منه من فرحة وبهجة أو شرود وصمت يخفي وراءه بحورًا من الكلام.. ظلت زَمردة تتجول بين أركان المكتب، تُهذب المكتب تارة، وتنظر من الشباك تارة أخرى، ويتابعها أبوها في تصنُّع باستمرار القراءة مختلسًا النظرات إلى وجهها المشجون وبالها الشارد، حتى سألها:

- مالك يا دكتورة؟.. ملامحك كلها حيرة وجواكي دوشة وزعيق وهدوء وسكوت وكلام!!

فاجأبته متسائلة:

- أنا صحيح يا بابا الزمن ده مش زمنى؟! وانا عاملة زي التحف والأنتيكات اللي بيحتفظوا بيهم في المتاحف؟!

هبطت أسئلتها على مسامعه كدوي انخرار جبل شاهق واقترب منها وسألها:

- ليه كل الفتك بنفسك ده يا حبيبتى؟!

- ترقرقت عيناها بالدموع ثم جاوبته بصوت يحفه الألم من كل جانب:

- أنا بشتري ملابس عصري زي كل البنات، عندي موبايل أحدث نوع، بتكلم بمصطلحات جيلي لكن اللي يناسبني بس، ورغم كل ارتباطي بجيلي مرتبطة ارتباط واضح بكل خيط أصيل قديم لنا.. يمكن بحس ان القديم فيه منبع وأصالة ومناعة تحمينا من عصرنا اللي احنا فيه، لكن حاولت يا بابا مؤخرًا إخفاء أو التظاهر بإخفاء الارتباط ده في شخصيتي خارج البيت وعدم الاحتكام به خصوصًا في نقاشاتي مع أصدقائي! لكن فشلت، وساعات بحس اني زي شجرة الصبار مينفعش تنمو من غير شوك، وعمرها ما حست ان الشوك هيجرحها لان هي طبيعتها كده حتى لو غيرها بعد عنها عشان شوكها.

على طول جوايا صراع وسط الناس، صراع تسبب ليا كتير بجرح من اللي حواليا، اللي بيحبوني واللي بيكرهونى، بتحصل على سبيل دعابة بتخفي الصراحة تحتها مرة والصراحة الجافة مرة تانية، وفيه اللي يتهمني بالتفلسف والتعقيد ويقولي الحياة أبسط من كده، وعصرنا وسرعته مالوش أي علاقة بأصالة زمان أو حتى تنفع عشان نوزن عليها أحداث زمنا ده!!

وآخر موقف حسيت اني اتجرحت فيه كان النهاردة وانا بتكلم مع صحابي.. واحدة صاحبتي خفست بأي شيء عربي الأرض، أصل كان أو ثقافة أو حاضر أمام الغرب، وعدم قُدرة أي شيء منهم على التجاوب مع المستقبل لضعفهم في الأصل، واننا اعتزلنا الحياة من قرون ومش فاضل لنا غير أرض منستحقهاش وبشر لا إرادة ليهم ولا عز ولا لون ولا رائحة، وختمت كلامها باستهزاء وتهكم عليّ إني زمردة فعلًا ولازم يحطوني في متحف عشان انقرضت خلاص!!

ابتسم الأب الحنون بسمة خافتة كقنديلٍ مذبذب ضياؤه، ثم حوَّط ذراعيه على كتف ابنته بتحنان واتجها نحو الشباك المُطل على مسجد الظاهر بيبرس والكاشف لصحن المسجد الفسيح وأشار إليه مُتحدثًا بفصحى تعمَّدها:

- انظري يا زمردتي إلى المسجد وصحنه، إنه يُعبر عن حالنا، وأرى فيه ما قصصتِه عليَّ منذ لحظات. بُني المسجد بسوره العتيق هذا منذ قرون، مرت عليه أيامٌ وليالٍ ثابتًا لم يقدر أحد على زحزحته.. ولكن يا صغيرتي استطاع من سبقونا أن يضعوا بصمتهم عليه وعلى صحنه، فهم قدرَّوا قيمته وأسَرَهُم جماله وفطنوا لعبقريته في تعديه كونه مبنى عاديًّا، بل إنه حضارة وأصالة ومظهر قوة تسري في النفوس، فأظهروا جمال صحنه وشيدوا النوافير وزرعوا الخضرة، فكان جنة على الأرض.. وبالضرورة من اهتم بالأصل وثبته، أن تمتلكه الرغبة بإضافة أصول أخرى، ليستمر المجد، وذلك ما فعلوه خارج الصحن من إنجاز وسلوك وعزة.. ومرت السنون وجاء زمننا لنضع بصمتنا يا حبيبتي، وها هي أمامك بلا حاجة للشرح والتفسير.. أهملنا الصحن

حتى صار أرضًا مجدبة، فقط آثار خضرة يائسة هنا أو هناك، وهجمت بعض الشروخ على الجدران وكأنه لا يعني لنا شيئًا!

الشاهد من كلامي يا زمردتي، أن التمسك بأصل الهوية ومعرفة قدرها الحقيقي هو إحساس بالذات وبالقدرة، واحترام لمكانة تأبى النفس النزول عنها، وما نزلنا عنها إلا لتهميشنا أصلنا وخصاله، وتسطيح العقول بدواعي القِدَم والتعقيد والفلسفة، ولصق العجز به، رغم كونه طاقة إذا تجددت في نفوسنا عمَّ النور بالنفوس!

احتفظي يا زمردة بفكرك وطبع عصرك واعتزاز هويتك، ولا تخجلي منها ولا تُخفيها؛ فلا صلاح للأمر إلا بها والعودة إليها، وعسى أن يكون قريبًا يا حبيبتي.

فهدأ بال زمردة ولمعت عيناها مرة أخرى، وطبعت قبلة امتنان على خدي أبيها، ثم تركته بعدما عاد إلى مكتبه وشرع في كتابة قصته القصيرة الجديدة "زمردة".

السؤال المُر.. والأمرّ منه!

أضواءٌ تتراقص وصوتٌ هادر يهز أرجاء القاعة بالصخب والفرحة. أُناسٌ التفوا حول العروسين يتمايلون في بهجة وسعادة بالغة.. وبينما انفض المعازيم من حول الكراسي للمشاركة في الرقص، ظلت طاولة على أطراف القاعة كاملة العدد لم يتحرك سكانها الأربعة واكتفوا بلُقيا الرفاق بعد طول الفراق!

عجلة الحياة الدائرة على جسد جميع بني البشر منعت الأصدقاء الأربعة من اللقاء لفترة طويلة قبل أن يجمعهم ذلك الفرح، وربما قلَّ تفاعلهم معه لبعيد الصلة بينهم وبين أصحاب الفرح، فهم أصدقاء أخي العريس ليس إلا.

تزامن الفرح مع بدايات ربيع مصر المناخي ونهايات ربيعها الثوري وبدايات خريف سوريا الدامي في إبريل 2011.. طغت فرحة اللقاء بعد غياب على صخب الفرح وألحان أنغامه المدوية، وتجمعت رغباتهم بدون بوح، فقط بالنظرات، أن يعيدوا ليلة من ليالي الهناء والسعادة الخوالي حين كانوا أحرارًا بلا قيود أسرية ومهنية وأسمى الأماني تجاوز العام الدراسي والعبور للذي يليه!

المناخ الربيعي خارج القاعة عزز اقتراح أحدهم بالخروج الحثيث

دون أن يشعر بهم أحد وخاصة زميلهم أخي العريس، منعًا للإحراج، من أجل التجمع على أحد المقاهي المفضلة لديهم، التي طالما احتوت أوقاتهم ورنت ضحكاتهم الصافية بأرجائها.. بالفعل تسرسب الأصدقاء الواحد تلو الآخر من القاعة وانطلقوا عبر الماضي السعيد وذكرياته نحو المقهى يعيدون شريط الذكريات حتى وصلوا إلى المقهى وتحرروا من جميع القيود النفسية على أعتابه.

برغم محاولاتهم غير المعلنة لتجنب الحديث عن أية منغصات حياتية، واتفاقهم الضمني على إلقاء جميع مسئولياتهم الملقاة فوق أكتافهم وراء ظهورهم فترة تواجدهم بالمقهى، إلا أن الصخب السياسي في مصر والمنطقة العربية وقف حائلًا أمام تنفيذ اتفاقهم هذا على الوجه الأمثل، وقفزت السياسة على طاولة المشاريب والحديث بينهم. وبطبيعة المصريين يدور الحديث حول الأحدث فالأحدث، بفعل الفضول ومواكبة المكلمات التليفزيونية وذاكرة السمك!

كان الشأن السوري هو الأحدث على الساحة، فاتجهت دفة النقاش حوله بين ثلاثة من الأصدقاء، بينما ظل الرابع يتلفت حوله كالذي تذبحه عقارب الساعة وقد نسيت أن تسِنَّ سنها المدبب.. يجلس الصديق الرابع المتأزم بحديث السياسة مُربعًا يديه فوق صدره في رتابة وملل مستمعًا للحظات لنقاش أصدقائه وشاردًا للحظات أخرى ومشغولًا بالعبث في جواله للحظات كثيرة.

يصول ويجول الثلاثة الآخرون بين مزانق السياسة وألاعيبها والوضع السوري الصعب بين قبضة بشار وشرارة التخلص من

حكمه بثورة تماثل التي خلعت مبارك في مصر، إلا أن الوضع السوري أكثر تعقيدًا، خاصة مع تواجد ما يُسمى بالجيش الحر الذي ألبسه البعض رداء الثورة، وبين هذا وذاك مؤشرات التدخل الغربي باتت وشيكة آنذاك، كلٌّ وفق مصلحته ولحماية نفوذه بشرية كانت أو موارد.

على هذا المنوال دار الحوار بين الأصدقاء الثلاثة إلى أن طرح أحدهم السؤال المر الذي ما توقع أحد من العرب السابقين أن يُطرح على طاولة نقاش عربية يجلس حولها عرب دماؤهم عربية، وهل وصلنا لهذا السؤال عن تراضٍ أم مُجبر أخاك لا بطل؟! كان السؤال المر الذي طرحه أحد الأصدقاء هو: »مع أم ضد ضرب الغرب لسوريا؟!“.

كان للسؤال المر صدى مختلف عند الصديقين الآخرين، استقبله أحدهما دون أدنى استغراب، أما الآخر فجحظت عيناه دهشةً ودام صمت التدبر للحظات قبل الإجابه عليه.

وربما ألبست الأحداث المتداخلة ضبابية الحكم من حيث الصواب والخطأ لباس النقاش والحوار حول هذا السؤال، وأنزلته منزل التدبر وكأنه بديهي وفي سياق المنطق أن يُطرح على موائد نقاش عربية!

كسر الصديق المندهش صمت التدبر وبدأ في الحديث وقد ارتسمت على وجهه حالة الجد واستحضر روح الخطيب المفوه التي بداخله والمشهور بها قائلًا:

- كانت الأراضي العربية في أزمان الوطن العربي الكبير برجاله بمثابة الحرم الموصد والعِرض المحمي بالنار والدم. ثم بدأت مراحل

العبث بالجينات العربية بمحاولات فك وحدتها الجغرافية المتمثلة في الحدود، حيث لم يكن ثمة حدود ولا أسلاك شائكة، كلها أراضٍ عربية إذا ألمَّ بإحدى بقاعها سوء تداعت لها سائر البقاع بالحمَّى والسهر والنهوض.. وبقدر قيمتك التي لا تعرفها الآن - عن جهالة وخنوع- لن يتركك المستعمر تهنأ بحلاوة التكاتف وشهد الانسجام حول أرضٍ واحدة، فجاءك بهدف واضح جلي مستهدفًا فصل وحدة أراضيك إلى دويلات وجنسيات ظاهرها الفصل الجغرافي وباطنها الفصل الحسي القومي المبني على غيرة ونخوة الأخوة والأرض.

- الحق أن الاستعمار نجح في الفصل الجغرافي نجاحًا تامًّا ببديهة تقسيم استعماري منظم، ورغم ذلك لم يَقْوَ طوال فترة تواجده كمحتل لأغلبية القُطر العربي على إتمام الفصل الحسي القومي؛ لبقاء الروح والنفس العربية صامدة متيقنة لا يراودها الشك والحيرة في هوية الأعداء والأخلَّاء. وبعد زمنٍ من الكفاح والجهاد سقط الاستعمار ورجعت الأرض لأصحابها، نعم فاقدة الوحدة الجغرافيا ولكنها كانت متمسكة بالوحدة القومية ووحدة معرفة العدو، وبرجوع الأرض وانتهاء الاستعمار العسكري حلت بداية جديدة.

- مرحلة "العدو والصديق".. العدو له وجه واحد، وجه العداء لا يتبدل، وجُلُّ حركاته تُبنَى على أساس الحفاظ على مصالحه فقط، ويعي جيدًا نظرتك له كعدو وخطره متوقع ولا عجب فيه.. أما الصديق الذي تجمعك به حياة مشتركة تخلو من الأقنعة، فهو على بصيرة من أمرك سرك وعلانيتك، قوتك وضعفك؛ لذا ثقتك به واعتمادك عليه فطرة حياتية منطقية، وخطره صادم وكل العجب

فيه، وصدمة خطورة الصديق هي ملجأ العدو لاختراقك، فلا يخترقك عدو عاقل إلا عن طريق صديق أحمق.

- وأقول إن الصديق الأحمق كان ولا يزال حيثيات الاختراق منذ بداية مرحلة ما بعد الاستعمار إلى وقتنا هذا، حماقة بطش وفساد الأنظمة وقمع الشعوب وضياع مصالحها مقابل الحكم، مرتميًا في أحضان وعود حماية واهية من حكومات وأنظمة دولية لا تنفذ إلا أجنداتها الخاصة المحافظة على ثروات ومصالح شعوبها في المقام الأول والأخير، عبر بوابة حماقة أفعال الأنظمة العربية، فلم تجد أمريكا ذريعة على طبق من ذهب للتدخل في الشأن العراقي أفضل من طمع صدام حسين وحماقة غزو الكويت، وصولًا إلى خرافة النووي ومراسم الاحتلال.

- الكَرَّة تعود اليوم بحاكم أفسد الأخضر واليابس، قَمَعَ الشعب السوري وسلب حريته وأمنه فداءً لأمن الحكم. وتأخذ الحكومات الغربية ذريعة واهية جديدة للاحتلال من بين حماقة البطش، تحت الغطاء الحقوقي ومظلة الحريات الفارغة، بنهم جديد لاستنزاف ثروات الأراضي العربيه من وقود وذهب.. الخ، في ظل أمم متحدة لا تحمي المغفلين من الشعوب والحكام. تأتي الآن وتسألني عن ضرب سوريا؟! بالطبع أرفضه رفضًا قاطعًا، بل هي خيانة صريحة!!

بدأ الصديق الآخر غير المستغرب من السؤال في التحدث بلغةٍ أكثر عامية قائلًا:

- بصراحة أنا موافق على ضرب الغرب لسوريا؛ لأن الشعب العربي

محتار بسبب ان صديقه العربي ابن بلده اللي بيحكمه أحمق واقف أمامه، وعدوه المستعمر الطمعان في ثرواته من خلفه، موقف شديد التعقيد وأصبح الاتنين غرضهم الفتك بالشعب، موقف قلب أي ميزان للوطنية.. مثلًا أنا لما أوافق على ضرب سوريا من الغرب ببساطة ومن غير فلسفة هي قلة حيلة مش خيانة، والغرض منها هو التخلص من نظام قمعي نريد جميعنا التخلص منه!!

وهنا قاطعه الصديق السائل معلقًا:

- لكن ازاي نصدق ما يسمى بعمليات عسكرية محدودة تستهدف النظام فقط؟ ومن إمتى المستعمر ولّا الغرب عندهم الأهداف النبيلة دي من غير أي مصلحة؟! أنا رافض ضرب سوريا من الغرب برضه لأنه استعمار في استعمار، ولا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، أمَّا النظام المتغطرس فقدرة الله U ثم صلابة الشعب السوري عليه.

تعددت الآراء والهم مشترك!!

ينظر له كل واحد منهم من زاويته الخاصة وفق تجربته الحياتية التي شكلت مكنونه واعتقاده.

- الإنسان كالكوب الفارغ لحظة ولادته، ثم من بعدها تبدأ عملية ملء الكوب بالمعارف والتنبه والتجارب، ومن الناس من يملأ الكوب بتوافه الأمور وصغائرها فقط، وآخرون رضوا أن يبقى فارغًا؛ هربًا من أمواج الهموم واضطرابها، وظنًّا منهم أن فارغ العقل والنفس بمنأى عن هموم الحياة وسيف بلائها البتار، إلا أن البلاء يزيد ثقلًا فوق ثقله وينزل قاصمًا على العقول الفارغة والنفوس التائهة، ولا

يشعر بمكاسب التجربة في امتصاص البلاء والصبر عليه إلا مُجربها!

مضى قرابة ثلاث ساعات ولم تنقطع المشاريب من الهبوط فوق الطاولة أو النقاش الدائر بين الأصدقاء الثلاثة، اللهم إلا من بعض الخروج من نقاش السياسة إلى النقاشات الخاصة التي لم تَدُمْ إلا دقائق معدودة قبل العودة لحوار السياسة الذي أكل الأخضر واليابس في جنستهم القدرية تلك.

لا جديد يُذكر لدى الصديق المتململ ضجرًا، فهو ما زال يعبث بجواله ويشرب المشروب تلو الآخر ويعترض حديث الأصدقاء بنِكات ومزاح لعلهم يترفقون بفراغه الفكري ويقلبون دفة الحوار إلى ما هو أكثر تسلية ويملأ جنباته الهلس!

رغم النكات والقفشات باءت محاولاته بالفشل، فعاد حبيس مله وجواله مرة أخرى، ثم انتفض قبيل الساعة الرابعة من النقاش وترك جواله على الطاولة وأوقف نقاشهم وقفة القائد الذي سيُبلغهم بنبأ عظيم وعليهم الانتباه له، وأخذ دفة الحوار للمرة الأولى في ليلتهم القدرية، ثم طرح سؤالًا أمرَّ من سابقه قائلًا:

- أنا سامعكم من أول الكلام بتقولوا بشار وسوريا، سوريا وبشار إيه العلاقة بينهم؟ هو مش بشار ده يبقى رئيس لبنان؟!

بنت الأصول!

تفتك بنا مصائرنا فتك الوحوش في البرية ونحن لها مُهيِّئون الطريق بنصب الفخاخ لأنفسنا، فتأتي المصائر تحصد ما زرعناه بالفتك والتمزيق، نرمي العيب على الزمان وفواعله دومًا، والعيب ما فارَقَ النفس وما تجاوز حدودها يومًا.

ليلٌ دامس مفعم بالسهد والشرود وأنفاس حارة لصبية هائمة. سكون تخترقه نغمات الراديو الخافتة وبرنامج إذاعي عاطفي يلتف حوله الشباب والشابات.. يبدأ المذيع في التحدث فترحل الصبية إلى بلدان الهيام والتوهان فتزفر بزفير العشق مع كل همسة للمذيع وكل نبضة لقصة عشق تُروَى على ألسنة حيارى العشق الصابين أمواج حيرتهم على مسامع المستمعين لعلهم يصلون إلى شواطئ الراحة وبر الحبيب المأمول.

من بين سُهد الليل وهيام العشق ومؤثرات الحب الصادرة من الراديو، شردت سارة بنت الثالثة والعشرين عامًا في حالها العاطفي وسافرت لمغارات الحبيب الذي اقتحم حياتها بمهارة ساحر والتواء حرباء. وما إن شبك سنارته بما تذوب له قلوب العذارى من كلمات، حتى التقطت طُعمه الحلو بالعسل مسموم النوايا!

سارة ليست بالساذجة أو البنت سهلة التطبع، بل إن النباهة والنصاحة يأخذان مكانًا كبيرًا بشخصيتها. مراكز القوة لدى الإنسان قد تُعطِّل تروسها إذا تجلت نقطة الضعف أمام الآخر واستطاع اللعب عليها.. تكمن نقطة ضعف سارة في عاطفتها الطائشة غير المتزنة التي قد تصل إلى حد الجنون وما بعده من السقوط!

على قدر ما تمتلكه من نصاحة، على قدر ما تفقد من رزانة وعقل حين يُطرب أُذنيها هاني - حبيب القلب- بمعسول الكلام والغزل، اعترف لها بحبه الشديد وذابت هي بين يديه، تخلل كل ثغرات الضعف لديها، العاطفة والإبهار والاحتواء!!

درسها درسًا جيدًا حتى استسلمت لرايات عشقه، تاه بصرها عن أصله وفصله، عن رسمه ووصفه، عن صدقه وإخلاصه. اغترت بغرام الأفاعي البادي على أقواله وأفعاله.. حذرها منه أقرب الصديقات إليها، حذَّرْنَها من حرصه على إخفاء حبه وتعامله معها بتستر مشكوك في أمره.. فالمحب كالفارس قويٌّ في إعلان فروسيته، يأمل لو أن أهل الأرض جميعًا عرفوه وسمعوا عن بطولاته وعشقه، حذَّرْنَها من قرنائه شديدي الانحراف والتسيب، فالمرء مرآة قرينه.. ولكنها قد عميت تحت تأثير نفسها المائلة للسقوط.

السقوط قد يبدو لنفسها أمرًا طبيعيًّا يتطاير بمحيطها، فهي نشأت بين أم وزوجة أب يتبارزان بالمكائد ويتشاجران على رجل عربيد فاسد، أب أتى بكل مظاهر الانحراف من السكر والتعاطي والعشق الحرام. استحوذ على كره الجميع حتى جاءت ليلة حالكة

السواد كئيبة قصمت ظهر البعير وكشفت عن ستر الحياء لدى الصبية حين تسرب لمسامعها أصوات عابثة لاهية فتبعت أثرها إلى أن وصلت لغرفة أبيها وتنصتت عليه، فرأته والقبح يعتلي الأجواء يشاهد مشهدًا إباحيًّا تحمر له الوجوه الحيية خجلًا.

الخجل والحياء لم يطرقا أبواب المنزل قط؛ ولذا انصرفت الدهشة سريعًا من وجه الصبية وتكشَّف لها عالم جديد من السقوط لم تتوانَ في الدخول إليه؛ فإذا كان رب البيت بالدُّفِّ ضاربًا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص!

تمكَّن هاني من قلب وعقل سارة وصارت كالصلصال يشكِّلها كما يشاء له هواه وانحرافه. تغنَّى بحبٍّ ظاهره الإخلاص وباطنه العذاب والضياع، تملكها تملك الأسيرة أو سبية الحرب، وبدا الأمر سانحًا لينال مرداه الوضيع.

كعادة المراد الوضيع يريد لغطاء من الضلال يضفي عليه صبغة الحلال لمحايلة الجهلاء والساقطين، ومن ثمَّ لم تكن مهمته صعبة لإقناعها بالزواج السري. كل الطرق تؤدي إلى السقوط! وافقت على الفور، وخلال أيام قليلة من عرضه كُتبت ورقتا الندامة وأُبرِم فخ السقوط بحضور العروس الواهية والعريس المنحلّ وقرينين من أقرانه الفسدة سمير ورضا، نُصب الفخ برضا بنت الأصول، وبلغ المنحل مُراده ولم يَبْقَ سوى أن يلقى كل منهما مصيره المحتوم.

انتهى هاني من إحدى سهراته سكرانَ حتى الثمالة يترنح لا يقوى على صلب طوله أو وعي ما يدور حوله.. برغم حالته الرثة صمّم أن

يقود سيارته بنفسه وأن يرحل بمفرده، فواجه قدره بمفرده أيضًا. سكر وعربد وفقد الوعي وقاد سيارته بسرعة جنونية، فاختلَّ توازنه وانقلبت السيارة من أعلى الكوبري، وانتهى أمره للأبد!

نزلت الصدمة على قلب سارة بالحسرة، لقد مات وماتت معه الحقيقة.. ترك لها تركة العار والضياع، سرها الدفين الذي وعدها كذبًا أن يُظهره ويعيشا في النور، فأعتمت الحياة بوجهها وكأنها أفاقت للتو من كابوس السقوط المروع!!

الصُّحبة الطيبة تجمع أهلها على الخير، والخبيثة تنفخ في الكير ولا يدوم فيها سوى الحقد والضغائن والخيانة.

ظل سمير الليل بأكمله يحملق في ورقة صاحبه المشبوهة، الورقة التي انتزعت عذرية الصبية الآيلة للسقوط، بل التي سقطت بالفعل.. يحدث نفسه وتحاوره هي ولا حاجة لشيطان يشد أزرها، قائلًا:

- فرصتك الآن تعوض عيبك.. بت ضايعة مستسلمة ومحدش هيقولك آه أو يرضي بيك غيرها، ولو ضيعتها تبقى حمار يا سمير.. أيوه تبقى حمار!!

رنَّ هاتف سارة التعيسة، اعتلت شاشته برقم غريب غير مسجل لديها.. ضغطت على زر الاستقبال بقلق كحال أيامها الجديدة بعد السقوط، وإذا بصوت سمير الذي اختفى لأربعة أشهر عقب مصرع صاحبه وكأن الأرض قد ابتلعته أو انصهر كالحديد.. تحدث باقتضاب ولم يسمح بتفاجئها أن يطول.. باغتها بتحديد موعد لقاء بالوقت والمكان، وشدد على ضرورة حضورها كي تأخذ آخر ما تركه

هاني لها، حسبما قال!

لم تتردد التعيسة وذهبت لمقابلته، جاءها في الميعاد المحدد بلا تقديم أو تأخير.. جلسا وساد الصمت لدقائق معدودة قطعها داعي الشر، وأخرج من جيبه الورقة الملعونة! لا تعلم الفتاة البائسة أن حبيبها الغادر قد غدر بها مرتين، الأولى بعلمها ورضاها حين تزوجها سرًّا وإنه لغدر جسيم! والثانية بدون علمها عندما أعطى صديقه الخبيث ورقة الخطيئة التي جمعتهما ليعذبها حيًّا وميتًا.

رأت الورقة.. دُهشت، كادت أن تبكي.. مدت يدها لتنتزعها، ولكنه كان أسرع منها وأقوى، أعادها لجيبه ثانية وأخذ نفسًا من سيجارته فبعثر دخانها بالهواء وقال بهدوء ذئب خبيث:

- اعتبري الورقة دي مش موجودة أصلًا ومحدش هيعرف عنها حاجة.. لكن ده طبعًا بعد ما نتفق.

- نتفق على إيه يا سمير؟!

- أنا بس اللي عارف الحقيقة واللي كان بينك وبين هاني الله يرحمه - ترحم عليه ترحم هتلر على اليهود بعد حرقهم- وأنا اللي اقدر أعرّف أهلك الحقيقة، وبرضه أنا اللي اقدر أدفن الحقيقة للأبد!!

- إزاي؟!

- آجي أطلب إيدك من أهلك ونتجوز، وبكده الورقة اللي خايفة منها دي محدش يقدر يكشفها.

- بجد؟!

- آه طبعًا بجد.

وأخذ نفسًا آخر من سيجارته وقال في لؤم:

- بس يكون في علمك انا عقيم ومش بخلف عشان متفكريش في العيال!

بُهتت للحظات وسألته:

- وإن موافقتش؟!

- ظرف أحمر جميلٌ مرسوم عليه قلوب ودباديب يوصل لحد باب البيت جواه الورقة اللي بالك منها، ونيجي نقرأ الفاتحة على روحك.. ولّا توفري على نفسك كل ده ونقرا الفاتحة برضه ونكتب الكتاب ونعلي الجواب؟! قدامك يومين ونتقابل عندي في شقتي تعرفيني ردك.. أظن عارفة الشقة انت من أيام مقابلات حبيب القلب!!

انصرفت كالذي يتخطفه الطير تضع التراب فوق رأسها من الندم والحسرة، الاختيارات أمامها قاصمة سوداء: الفضيحة أو القهر والوحدة.

إما الرضوخ لابتزاز هذا الشيطان وتسكن التعاسة حياتها باقي العمر، وإما الرفض والفضيحة أمام الجميع. شعرت وقتها بسوء ما اقترفته وسقوطها المريع، ولكنها قررت ألَّا تستسلم لهذا الشيطان، وعليها الرفض مهما كانت العواقب ومهما وصل بها الأمر من تضحيات، أفضل من أن تعيش مع شيطان كلما رأته تذكرت سقوطها وسوء منقلبها!

لم تُخبر أحدًا من القريبات العالمات بأمر سقوطها بمرارة الحيرة الواقعة عليها جراء ابتزاز سمير لها، وفضّلت أن تغوص في غيابات الجب بمفردها، وقررت الذهاب للقائه!

عادت لتأنقها القديم عن عمد وتزينت تزين العذراء ليلة العرس، وقصدت بيت الشيطان تخطو نحوه باضطراب وقلق وكأنها للمرة الأولى ستذهب إليه.. ربما كانت الأولى التي تشعر أثناءها بالدنو والسقوط، بل العهر!

تحققَ له ما أراد ورُسمت البهجة وتلذذ الانتصار بعين سمير فور رؤيتها.. تيقن أنها أصبحت خاتمًا بإصبعه، فهي لم توافق على عرضه فقط، بل تهيأت تمامًا لما أراد!

أكد حدسَه ورغبتَه الجامحةَ تلطُّفُها الشديد وميوعتها معه، واستدراك شهوته المتأججة حتى وقع في فخاخ جمالها وبادر أن يستحل ما حُرم عليه بالهجوم عليها لينال مراده الخبيث.. حينها أيقنت الساقطة بنجاح خطتها وحاولت رد بضاعته الفاسدة إليه.. بضاعة المساومة القبيحة والابتزاز العفن، وعرضت عليه المتعة مقابل الورقة.. وحينها خرج الشيطان من طور الحيوان الذي تجره الشهوة إلى الذليل الذي تقهره نقيصته، فرفض وأصرَّ على الزواج، فهو لا يريد المتعة وحسب، بل يريد أن يُشبع نقيصته بالامتلاك والقوة والشعور الذكوري بأن أنثى تتودد إليه وراغبة في البقاء بجانبه في ظل عقمه هذا.

ولو كان رجلًا حقًّا لاستحقه، ولكن الذَّكَر بلا أخلاق لن يصل

للرجولة ولو خرق الأرض أو صعد بسُلّم للسماء!

خرج من طور الشهوة، وخرجت هي من عباءة العاهرة، وأفصح كلٌّ منهما عن نيته.. المتعة مقابل الورقة، أو الزواج مقابل الورقة.

احتدَّ النقاش وعلت النبرات المتساومة على طاولة الشر حتى أمسك سمير بذراعيها في عنف وضمها إليه وكأنه يُطبق عليها الدنيا ويَئِدُها تحت التراب.. هددها وعينه يشع منها وابل من الحقد كالنيران الحارقة، إما أن توافق على الزواج وإما أن تستعد للفضيحة.

نهرها بقوة أجلستها على الكرسي رغمًا عنها ثم استدار قائلًا:

- الزيارة انتهت.. مستنيكي تعقلي وتقوليلي آجي أقابل أهلك إمتى!

هنا فار التنُّور بداخلها ووُلد جنين الجريمة برحم سقوطها المهين..

أخذت سكينًا حادّة من فوق الطاولة كانت حاضرة وسط ترتيبات ليلته الحمراء التي أعدها في خيالاته، وطعنته في ظهره طعنة واحدة قاتلة قضت أمره للأبد، وغرقت هي في دماء السقوط للأبد!

مرة واحد صعيدى

يعلم من اعتاد المرمطة في وسائل مواصلات المحروسة أن الميكروباص الصغير أزرق اللون - كما جرت العادة- ذو الاثني عشر مقعدًا، أو كما يسمى بالشارع «التويوتا»، من أيسر المواصلات؛ إذ يحافظ على عدم تجاوز عدد الركاب على عدد المقاعد، وبالطبع لصغر الحافلة لا لأسباب إنسانية لا سمح الله! فمجبر السائق لا حقوقي!

مغامرات التويوتا وركابها لا تنتهي، ويُسعده حظه من يركب الحافلة من أول الخط إلى آخره ليعيش لحظات بها من الضحك والشجار والحكمة، وأحيانًا كثيرة المسخرة!

تجمع المواصلات في القاهرة بين أغلب الطبقات بوجوههم الكادحة نهارًا أثناء ذروة الأعمال والازدحام.. ازدحام العاصمة أصبح قاتلًا بحق. من أهم خطوط سير التويوتا في العاصمة، الخط البادئ من ميدان رمسيس إلى شارع مكرم عبيد الشهير، ويضيف تواجد محطة مصر العتيقة أهمية كبيرة لهذا الخط؛ نظرًا لأنها وسيلة نقل يسيرة توفي بغرض الغرباء عن القاهرة وزوارها الذين يفدون إليها من بحري وقبلي لقضاء مصالحهم.

لا تتحرك التويوتا شِبرًا إلا بعد أن تمتلئ عن آخرها؛ حتى لا يغامر

السائق بترك أماكن فارغة لا يضمن أن تمتلئ طوال طريقه فتضيع عليه أجرتهم، هكذا يحسبونها سائقو التويوتا.. ولكنه يتحرك فورًا ولو خاليًا إذا سمع السائق طرقة مُدوية على صاج الميكروباص من الخلف تعلن عن أوامر الباشا بالانصراف وإلا نالت والدة السائق وكل من تشدد له من الركاب ما فيه القسمة والنصيب من أفخم الشتائم واللعنات والسباب!!

يومٌ من أيام الحر الشديد وقد تعامدت الشمس الحارقة على الأرض، واعتلى التعب والإرهاق وجوه المارة بالطرقات، كلٌّ يمضي في طريقه، وتعددت الأسباب والسعي واحدٌ. من الناس من سعى هاربًا من شمس الظهيرة إلى منزله عبر التويوتا.. وُزع الركاب بغير ترتيب على الميكروباصات التويوتا الصافة في طابور واحد بحذاء الرصيف على يمين شارع رمسيس بجوار مسجد الفتح الشهير.

امتلأ الميكروباص الثاني في الصف عن آخره إلا من مقعد واحد ينتظر الجميع أن يُسكن ليتحرك الركب.. بدا على التويوتا آثار حداثة شراء، ظهرت من حالتها الجيدة ونصاعة العلامة البرتقالية أسفل الحافلة من الخلف المحفور عليها النمرة الخاصة بالمرور المُكون من حفنة مبهمة من الحروف والأرقام. حداثة الميكروباص لم تمنع لصق عبارة عامية مازحة بأعلاه: «ماشية بالزء وعمرنا ما قولنا لأ».

كان أول من ركب التويوتا رجل صعيدي عُرفت هويته من لهجته وجلبابه الواسع الأصيل، وآخر من التحق بالتويوتا كانت السيدة الثلاثنية الظاهر عليها الإنهاك إثر يوم عمل حار، تُمسك بيديها

طفلها. جلست السيدة بالكنبة الأولى خلف مقعد السائق، ثم من بعدها أُغلِق باب التويوتا الجرار وانطلقت بلا توقف نحو مرساها آخر الخط.

وكما ورد في كتاب مواصلات المحروسة فصل التويوتا بند 2 تحت عنوان (المقعد الذي بجوار السائق)، وتحدث هذا البند عن غرابة ذلك المقعد الذي يفتح شهية الجالس عليه للحديث وإقامة نقاش اعتيادي مع السائق، ولا أعرف سر خلطته وسحره.. تشعر وكأن من جلس عليه صار شريك السائق في الحافلة، يصول ويجول في النقاش حول كل شيء وأي شيء يخص الحياة والدنيا والسائق والحافلة، ولو طالت مدة تواجده لحرر السائق عقدًا يتنازل فيه عن الحافلة للجالس بجواره!

بدأ الرجل الصعيدي الجالس بجوار السائق في الحديث، أو بالأحرى في طرح الأسئلة بلهجته الأصيلة المليئة بالطيبة والفطرة، وإن لم تَخْلُ من بعض السذاجة.. طرح أسئلة دلت على غربته في القاهرة وحداثة نزوله إليها، بل وقلقه من تيهه فيها وفزع اجتياح الغروب لسماء القاهرة قبل أن يقضي مصلحته ويعود سالمًا غانمًا من صخب المدينة ولباطة أبنائها.. أبلغ السائق عدة مرات قد وصلت للعشرة وربما زادت بأنه يريد الوصول لمبنى السجل المدني بالعباسية وضرورة أن يُعْلِمه السائق حين يصل العباسية تلك ثم يدله على مبنى السجل المدني المبهم لديه، حتى أثار لهفة وشفقة الراكبين لنجدة قلقه وتهدئة باله بأن الميكروباص ما زال في طريقه، وإن نسي السائق فلن ينسوا هم ولا داعي لقلقه الشديد.

وفي ظل التفاف الركاب حول قلق الرجل إما بالتهدئة وإما بالتهامس والتحاور الجانبي، شرع الطفل ذو السنوات السبع ابن السيدة الجالسة خلف السائق في وصلة شجية من الصراخ والطرق بقدميه مستجديًا أمه لتحضر له حلوى وكأنه فجاة صار أحد مدمني المُخدر وقد أصابته الحاجة إلى جرعة مخدر ولم يعثر عليها فاهتاجت خواطره وجن جنونه. عكفت أمه على هدهدته بشتي السبل والوسائل، بالمحايلة تارة والقبلات تارة، والنهر والضرب تارة والنظرات الصارمة تارة أخرى، والطفل لا يبالي بتهديدات أمه، فهو منغمس في ذروة شهوته للحلوى.

هددته أمه بعمو الجالس بجانبها بأنه إذا استمر في الصراخ سينهره ويعاقبه، وبالطبع لم يرتدع الطفل أمام ذلك الشاب العشريني الوديع الناظر للطفل في شفقة جمة، وود لو أوقف التويوتا وجلب الحلوى له.. حب وتحنان من الشاب لن يمنعا الصخب الذي جلبه الطفل للركاب بل سيزيده!

الجميع مدووشون بصراخ الطفل عدا بلدياتنا الجالس بالأمام، لا يزل يأكل أُذن السائق خوفًا من تيه القاهرة بصوته الجهير ولهجته الجشة، فأصبح الركاب بين فكي الرحى، صداع الرجل الغريب وصراخ الطفل المسكين.

وجدت المرأة في هيئة الرجل الغريب هيبة ورهبة وصوتًا جهيرًا قد يرهب طفلها المفطور، فهددت ابنها مرة أخرى بعقاب الرجل الصعيدي إذا لم يكف عن البكاء.. لا جديد، فالبكاء مستمر، حتى

قررت تفعيل التهديد وقصدت الرجل الغريب ليثني طفلها عن البكاء، فما كان من الرجل الغريب سوى أن التفت للطفل في وداعة وسذاجة وصوت أجش و»ق» قلبتها لهجته إلى «ج» قائلًا: ما تسكت بجي يا ابن الجحبة!!

عذابات الفراق

ليلةٌ ليلاء.

تجتاح أمواجُ حزنِه حصونَه وسكونَ ليلته.. عن أي سكون أتحدث؟! غاب سكون لياليه منذ فترة طويلة! حصونه صارت هشة! غرق في أمواج حزنه!

اهتاجت مشاعره على ضعف لحظته ومنعته من النوم، يجلس في ظلام غرفته مشدوه العين محملقًا في السراب. حبست عينه دموع كِبر في لحظةٍ حمدانية تعود إلى أبي فراس الحمداني الذي سبقه قبل سنين بإذلال دمعٍ من خلائقة الكِبرُ حين انفرد بالليل وبسط يد الهوى لتعصف به!

حريقٌ هائل شبَّ بمداخل شعوره يود لو يخرق الأرض أو يعود للحظة ميلاده لكي يبدأ من جديد.. شعر باحتياجٍ جمّ ليعبر عما يشعر به وإلا اختنق؛ ولذا أضاء نور غرفته المعتمة وأحضر القلم والرقوق وبدأ ينظم ما حلَّ على وجدانه من شعور:

شاب القلبُ قلب الأوان شَيْبةَ جُرحٍ وانشقاق
ليت منح الدهر لحظة لقاء تذوب فيها عَذابات الفراق
لكن إذا حكم الدهرُ حكمًا فليس لنا لردّهِ جمعٌ واتفاق

يهجم العشقُ بالبغي دومًا كذئبٍ هجم بالليل في استراق
سامحك الله يا عشق خلفت في القلبِ دمعًا واختناق
ومصيرُ عاشقٍ واهِمٍ ذبحه خيرٌ عنده من صدِّ معشوقٍ أو استرقاق
مُمنّيَ النفسِ بنومةٍ خلاص لا يُعذبه فراقٌ بعدها ولا استفاق

ظل يقرأ ما نظمه من أبيات ويردِّدها حتى أفرغ ما لديه من شحنات حزن ثم راح في غفوة نعاس مليئة بالكوابيس!

تمر على الإنسانِ أيامٌ ثقال، تعصف بوجدانه، وتقلع سكينته كشجرةٍ اجتاحها إعصار غاشم، لحظات تدق فوق رأسه بمطرقة خيبة الأمل وضياع المأمول، تُهشم إرادة وتُسقط عزمًا وتسلب روحًا، وقد ربح مَن استردَّها بعد الوجيز من الأيام وقبل فوات الأوان، ويا حبذا لو نفوز بالمأمول ونربح سكون الروح معًا.. ولكنه طبع الحياة الأزلي وسيفها الحاد فوق رقابنا جميعًا.

يهبط على الإنسان أملٌ كبيرٌ شديد الأثرِ على النفس كالحبِّ، يجمع عنده كل الآمال في نقطة أمل واحدة، كمغناطيس ذي قوة جذب عاتية تجذب كل المعادن المحيطة بها في نقطة واحدة بجسم ذلك المغناطيس، حتى يصبح الوصول للمحبوب هو المأمول فوق كل مأمول ولو تعددت.. ما هذه الريح العاصفة الهاجمة على الروح والأمل بالكدر أو الفرح؟ فكلاهما هجوم يقتلع الأمن والراحة ويُسوِّر أسلاكه الشائكة وهموم الخاطر وعذابات الفكر حول النفس والعقل والقلب، بل والحياة كلها.

كل هذا الفكر وربما التفلسف جال بخاطر الشاب العشريني "زين" نحيف الوجه، متوسط القامة، مرتب الفكر، مهندم المظهر، لا كثيف الشعر ولا حليق الرأس، بينَ بين، يخفي وراء عينيه حفنة من الغموض والشجن، حين شرد بذهنه وجحظت عيناه أمام نتيجة عُلقت على الحائط وفرت أيامها كفرّ أوراق الدومنة، اليوم تلو الآخر حتى يومه هذا وليلته تلك التي لم يذق بها طعم النوم، ولا حاجة لكوابيس أخرى فيها، يكفيه كابوس فراق حبيبته بعد ساعات قليلة، حبيبته التي كتم أمرها دومًا في صدره ووشت عيناه وأفعاله بما يحمله من حب صار حملًا ثقيلًا وهمًّا أمام أبوابها الموصدة بوجه عشقه، ففَضَّل الكتمان والأنين على بوح الوجدان والفقدان.

ولكنه قادم لا محالة!

انتشله صوت والدته من شروده:

- صباح الخير يا زين.

- صباح النور يا ماما.

- مالك يا ابني واقف كده ليه قصاد النتيجة؟!

- مفيش يا ماما.. افتكرت حاجة، هبقي احكيلك بعدين.

- طيب، تعالي افطر معانا.. النهاردة الجمعة، اليوم الوحيد اللي بنفطر فيه مع بعض.

- حاضر.

قالها بخفوت اليأس، وجلس وسطهم كما اعتادوا عليه في الفترة

الأخيرة صامتًا هائمًا، لا تخرج الكلمات إلا ردًّا أو صدًّا، أصبح سريع الاشتعال عكس ما كان، يشعر وكأن جيوشًا جرارة تقف بحملها فوق رأسه ولا قدرة له لصدهم أو مجاراتهم.

بدَّل العشق أحواله وزلزل أركانه وبدد مدينته الآمنة!

قبل الموعد بساعتين، كان زين يشق غيم طريقه مترجلًا، تلفح جبهته حرارة شمس صيف حارقة. آثر الترجل على أن يستقل سيارته.. التدبر المصاحب للشجن يحلان على صاحبهما أثناء الترجل أكثر من أي وقت آخر، اخترق طرقات تُذكِّره بها، وتحدَّث صامتًا حديث روح لا لسان:

انتهت أسباب اللقاء التي طالما أخفيت حبك وراءها، كنت تنتظر أوقات العمل لرؤيتها وتعبر بالفعل والعين عن حبٍّ مخلص لم يُقدَّرْ له اكتمال البوح، فكل لبيبٍ بالإشارة يفهم، والإشارة كانت واضحة بالرفض واللطفِ في آنٍ واحد.. في آنٍ واحد!

اليوم ستفارق وتبعد ويعز اللقاء وحُجته، وعليك القبول والاستسلام وحفظ كرامة المحب وكبريائه.. يا ليتها كانت مسافرة أو مهاجرة لأتحايل على نفسي كذبًا ببعد المسافات وغطرسة الحدود وقيود السفارات وذل بطاقات الهوية، وربما ألقيت بحجتي على الاستعمار ولعنته لتقسيمه الحدود والبلدان!

وصل وقد قارب الاحتفال على البدء، يحتفون بالزميلة المفارقة، ويكتم هو أنين الحبيبة المفارقة. تلقَّى وجهها الباسم بابتسامة عاشق، كانت متأنقة كما اعتاد عليها، مرحة تضحك فتظهر نغزات وجهها

الجميلة، تلُفُّ شعرها الغجري لفة دائرية يسمونها "الكحكة"، حدَّث نفسه مبتهجًا مشجونًا: صدفة ثقيلة ككل شئ محيط، كيف عرفت إعجابي بتلك الدائرة بمؤخرة الشعر؟ كنت دائمًا أري فيمن تصنع هذه الدائرة الجمال، واليوم أرى فيها دائرة مفرغة كبئر وقعت فيها منذ أن رأيتها!

ظل زين صامتًا إلا من بعض ابتسامات المجاملة والقليل من الكلام الذي لا مفر منه، ومتابعة وجهها لعل بصمته تثبت في عينيه للأبد.. مرَّ الوقت خاطفًا، وانتهى الحفل على أوجاع قلبه، وتحرك الجميع في الوداع والرحيل، قسم الأصدقاء أنفسهم على السيارتين المتاحتين. تصيَّد وتعمد أن تجمعهما سيارة واحدة، وكان له ما تمنى، وابتسم له حظه البائس ابتسامة كيد فأجلسه بجانبها وقد وضح همه على وجهه، وتعلق بصره بالخارج عبر النافذه لا يرى سوى قاع نفسه المحتدم، حتى قاطعته همسًا وسألته للمرة الأولى:

- مالك يا زين؟!

التفت إليها وجاوبها بنبرة صدق أفرغت ما لديه من صدق إلى أن يموت:

- بحبك.

صمتت وتلعثمت ولم تعقِّب، فنظر إلى النافذة كما كان، ولم يمر سوى لحظات وطفرت من عينها دمعة لم يشعر بها أحد سواه.. دمعة كخنجرٍ مسموم دُسَّ بمنتصف صدره، دمعة استحلت دمه وتزامنت مع وقوف السيارة معلنة وصوله. ودعهم ورحل وظل واقفًا

يتابع السيارة حتى تلاشت وسط الأضواء والسيارات، غارقًا في نزيفٍ هادر استمر للحظات، وربما لأيام، وربما لسنوات.. (يتبع).

الداءُ.. والدواءُ

بعد مرور ست سنوات..

أنهى زين عمله مبكرًا، للمرة الأولى منذ قرابة شهرين، يشعر بنشوة غريبة عنه، يحدِّث نفسه والبهجة تسيطر على جل حواسه ومنابت شعوره.. أخيرًا عاد يومي يقبل القسمة على عدة أشياء أستطيع فعلها بجانب العمل بعد فترة من العمل المُضني والإرهاق الشديد.

أفسحةٌ من الوقت في يومك تحتاج كل هجمات الفرحة تلك المباغتة لنفسك؟ ولِم لا وقد غابت الفسحة والفرحة لمدة طويلة، والغياب الطويل يبعث اللهفة والاشتياق، وينذر بالفرحة والبهجة ولو لصغير الأمور وأبسطها؟!

احتار فيما يمكن فعله رغم كونها ساعات قليلة بالقياس لما يقضيه بالعمل، لكنه مشتاق لملء فراغات نشوته.. اعتاد على كثرة فراغات نشوته، وطالما تعددت فراغ أوقاته، فيصير دومًا كائنًا تعتصره الحاجة ويفتقد الإشباع، وترنو نفسه إليه.

أخذ كتابًا من حقيبة الكتب الملازمة له دومًا بالسيارة، بعد حيرة لم يعهدها، دائمًا كان محدد الأفكار يختار ما يقرؤه وفق حالته المزاجية بعناية، ولكنه يشعر بالنشوة، وأحيانًا النشوة تجلب الحيرة، والحيرة

حالة مزاجية لها تراكيبها وربكتها ورغبتها في الوصول.

خطوات قليلة قبل أن يقف أمام أحد مقاهي القهوة الأجنبية السريعة اعتاد الجلوس فيها، لمحه أحد جرسونات المقهى، رحب به ترحاب العائد بعد غياب، حين رفع زين عينه تجاه مكانه المفضل في المقهى وقد زمَّ شفتيه في رتابة وقال:

- واضح أن مكاني مشغول.

- لو كنت اتصلت كالعادة كنا حجزنها لك، بس بقالك فتره مش بتشرفنا يا باشا.

- كنت مشغول شوية في الشغل.

- تشرب قهوتك؟

- شوية كده، وبعدين هقوم اظبط حالي.. أنا مش زبون.

- طبعًا طبعًا، نورت.

دقائق معدودة بعد أن جلس على طاولة بمنتصف المقهى، راح يتأمل الجميع حوله، لا بغاية الفضول، بل تحت طائلة السرحان وشرود الذهن. لملم ذهنه وشرع في القراءة، قرأ سطرًا بعينه مرورًا ثم أعقبه سطرًا آخر بعين ثابتة مُحملقة حتى تاهت الحروف عنها. أطبق جلدتي الكتاب فجأة ونهض من جلسته وتحرك نحو باب المقهى منصرفًا.

حيرته في اختيار الكتاب كانت دليل بحثه عن شيء آخر يجول بإحساسه يريد فعله، ولم يتكشف بعد لترتوي أشجانه الباعثة

للبهجة المسيطرة عليه، ومن غرائب الحياة وعجيبها أن تصبح الأشجان أحيانًا باعثة للبهجة، وذلك حين تغتسل بحوادث الوصول والمأمول، ويعقب تذكرها بوحٌ مستتر وصمتٌ باسم.

البوح المستتر والصمت الباسم حالتا اختلاء بالنفس وإن كان جسدك مُحاطًا بالجموع، الثانية نتيجة الأولى. البوح يجمع بين المصارحة والتذكر، وربما شمل الندم والعتاب، ولربما كان البوح المستتر هذا كاشفًا يرتقي بصاحبه لمراتب الحكمة والفلسفة.

بوادر الحالتين كانت تلوح في أفق زين حين تلعثم ذهنه في القراءة، ورفض الخضوع إلا لما يريد فعله وانصرف من المقهى ليس قاصدًا شيئًا سوى الترجل والبوح فقط!

الترجل وحي الإمعان والبوح، روجه المسحوبة إلى ذلك الثنائي حركته نحو الترجل قبل الغروب بساعة أو أقل، ولا يكون الترجل محلقًا بالروح والنفس إلا على ضفاف النيل.. أسراب من الفكر توغلت بداخل عقله، تبغي التجمع في نقطة واحدة لبدء البوح والتمعن فيما مضى وفيما هو آتٍ وما يمر به بينهما.

تجمَّع فكره وإحساسه عند الصبر والانتظار، لا سيما الانتظار الذي يعصف بأركانه منذ الصباح عندما صرح لها بحبه فانصرفت مرتبكة تطل علامات القبول والموافقة من عينيها، فصار انتظاره هانئًا مطمئنًا تكسوه البهجة، إلا أنه أثار بداخله شجون انتظارات أخرى سابقة تعذَّبَ بسَببها حتى شُفي منها بعدما فقد من عمره ست سنوات، وتداولت الليالي والأيام عليه بالسهر والألم والصبر

وقولة آه!

تتبختر الدنيا بين ضلوع الإنسان وتتمايل في ثوب حرفي الألف والهاء (آه). الكلمة واحدة وإصداراتها متعددة، لكل إصدار غاية وشأن. آهة الفرحة يلازمها ابتهاج الوجوه، وآهة الآلم يصحبها ضيق الجبين، وآهة الذكرى تلاحقها تنهيدة مرور السنين، وآهة الندم جالبة للشجن، وأخرى تفتح للنشوة مسلكًا. وكلها أحاسيس ترسم لوحة خربشات الحياة التي لن ينجو منها أحد من العالمين ليحق قول الحق: [لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ].

قرر البقاء مترجلًا في ضيافة النيل إلى أن يلقى الرد الأكيد المثلج لصدره. بدأت نفسه بالبوح والتذكر لأيام وساعات ولحظات لها الناموس ذاته والقانون نفسه الساري على أيامه تلك ولحظات ترجله هذا، فالوقت شيمته ثابتة فلا تسبق الدقائق الثواني ولا تتخطى الشهور بعضها، فقط تتغير الحوادث وتتبدل الأدوار، وتتحول المشاعر والأحاسيس والأفكار.

جال بخاطره سنوات قليلة ماضية حين ترجل يأسًا يجر قدميه بثقل وهزيمة روح بجوار النيل نفسه، تنهد ونظر للنيل وحدثه بكلمات لم تخرج من فمه بل من كامن نفسه: أتذكرني؟! أنا أثق أنك تذكرني رغم كثرة المترددين عليك بأوجاعهم وسعادتهم، ولكني على ثقة بأنك تذكر ذلك الشاب الذي ظل أكثر من عامين يتردد عليك يشكو لك فراق حبيبته وهو غريب عن نفسه وعمن حوله يبحث عن دواءٍ يشفيه من عذاب الفراق وحبه اليائس، بل ويمحو كل هذا الإخلاص البائس

لحبٍّ قتله وبدد أمنه.. وقتها قلت لي بهدوء جم: الصبر الصبر.. الأيام الأيام.. ثم سكتَّ وأنا انصرفتُ إلى داخل نفسي وداخل أيامي لعلها تأتي بالتي كانت هى الداء .. فتصير الدواء أيضا!!

حضرت بسمة صامتة على وجهه، في موعدها الإنساني الدائم عقب بوح الوجع المستتر، وقبل بوح آخر خير بدء له البسمة.. وقف عن الترجل وسنَّد بيديه على سورِ النيل العتيق ناظرًا إليه مستكملًا كلماته المستترة: هأنا جئتك بعد مرورِ الأيام أقف بين يديك والحال قد تبدل، وثبتت الأقدام على جسر الحياة، وصار العقل أكثر حكمة والنفس أشد صلابة لمعتركات الحياة، ونبض القلب مجددًا بالحب، واجتزت مراحل الصبر وتعودت عليه، وصبغ حلمه على نفسى وتآلفت مع انتظاره برغم بقاء الانتظار يُتعب القلب ويُعذبه مثل انتظاري هذا لعلامة قبول من حبيبة تجلب اللون الأخضر في الحياة وتدخلني مدخل الإنسانية الكبير.

وبينما هو يبوح لصديقه مشجون النفس رن هاتفه فرد بهدوء مصطنع:

- آلوو..

- آلوو، إزيك يا زين؟!

- الحمد لله، إزيك انتِ؟!

- أنا بحبك.

قالتها في ربكةٍ وأغلقت الهاتف وقلبها يدق كدق الطبول قبل

مواجهة كبرى، بينما ابتسم هو ابتسامة عريضة أغرقت ما بداخله من حزن الماضي في مياه النيل العذبة، وهمَّ بتدوين لحظته عبر الحروفِ والكلمات كما تعود دومًا:

"عزفٌ منفردٌ تارة وجماعي تارة أخرى، دقاتُ طبول المنعطفات تدوي بالنفس بين الحين والآخر، وانتصارٌ جالبٌ لنشوةٍ ورقصةٍ على الأنغام الصاخبة، وألمٌ نبش الجرح واستحضر شجنًا قديمًا تراقص دمعه على أنغام الناي الحزين.. وذاك تداول الأيام البديع، بين الداء والدواء، الذي نحن سائرون تحت مظلته دومًا. فمحرومُ الأمس ملك اليوم، وعاشقٌ بالماضي صار معشوقًا بالحاضر، وظلامٌ ساكن ونورٌ هادر".

لحمة كتير

يوم العمل بالخليج، أو كما يسمونه «الدوام»، يومٌ شاق يمتد لأكثر من ثماني ساعات منذ بداياته في السابعة صباحًا؛ ولذا إن دخل أحدٌ دوامة العمل وسحبته إلى قاعها فلن يظهر إلا حين يفترسه الإرهاق أو الجوع!

كاد أن يلتهمني الجوع، بل التهمني بالفعل، للحد الذي جلب لي صداع الجوع القابع بمؤخرة الرأس، وباءت جميع محاولات الاستماتة بالفشل، وصار الجوع يركض بداخلي ركض الوحوش في البرية؛ ما جعلني أقف أمام أول مطعم من تلك التي اعتدت عليها؛ لأنه في أوقات شهوة الجوع تذهب شهوة التجربة والفضول ويُصبح من جربت مطبخه أفضل ممن تُسلم له جوعك لأول مرة.

أوقفني جوعي أمام أحد مطاعم السندوتشات التي تُجهز أمام عينيك لا من خلف ستار أو برفان المطبخ المغلق الذي عُلق عليه من الأعلى قائمة إلكترونية تشمل أنواع الوجبات المختلفة، ولكن المطعم المختار هذا عيون وجباته على عينك يا تاجر، رغم أن سبكها كان خفيًّا عن أنظار الزبائن أيضًا، إلا أن عرضها أمام الطالبين كشف نصف سرها والنصف الآخر لا يتكشف سوى بالتذوق!

اقتراب الساعة من السادسة مساءً سبب كافٍ لطول الطابور الذي رأيته فور دخولي المطعم متلهفًا تتساقط روحي من فرط الجوع الذي أغلق أبواب الاختيارات سوى اختيار الوقوف مع الواقفين المتربصين للحظة النجاة وطلب ما اشتهته الأنفس من طعام.

وبينما نحن وقوف في صمت وترقب، اقتحم رجل بدت عليه المصرية - المظلومة معه ومعنا- الطابور في فوضى قاهرية غاص بها حتى جرى بداخله مجرى الدم، وأسرعت خُطا اقتحامه حتى أصبح في مقدمة الطابور توازيًا وتعرجًا معه، وبكل وقاحة تطل من عينيه كوضح النهار طلب وجبته غير عابئ باستهجان الواقفين حوله ورفضهم لفعله الفوضوي!

حاول معه رجل وقور أن يقنعه باحترام النظام فأجابه بتذمر متحججًا أن طلبه صغير ولا يستلزم الوقوف في هذا الطابور الطويل، ومن بعد الرجل الوقور رفض محصل الطلبات أن يسجل طلبه في بداية الأمر قبل أن ينصاع له تحت وطأة زن الإلحاح ومهانة التذلل حتى تحوَّل ضجر الناس إلى التقبل المصحوب بالشفقة الذي أعقبه الرضوخ رغبة في انصرافه لا موافقة على هجميته،اللهم إلا من اعتراض رجل مُسن ألقى بغضبه على العرب جميعًا وردد غاضبًا أن العرب نفسهم قصير تجاه النظام ويميلون لخرقه تحت العديد من الحجج والمداخل العاطفية ولا سيما إذ كانت الشفقة والاستسهال!

لم يكتفِ الرجل الأحمق بهذه الفضيحة، بل زاد الطين بلَّة في سفه جم وطلب ما يشتهيه، حيث أشار للهندي القائم على تحضير الوجبة

وشدَّد عليه بالعامية الفاضحة: «حط لحمة كتير»، فهزَّ الهندي رأسه متقززًا ولم يعقب، فقط أكمل عمله في صمت. وفرغ من تحضير إحدى الوجبات لسيدة حان دورها، وبينما هو يضع الرتوش الأخيرة على حاملة الطعام الخاصة بها، صاح الرجل الأحمق بعد لحظات من السكون مشيرًا إلى وجبة السيدة قائلًا: «أيوة هات السندوتش ده فيه لحمة كتير!».

نظر له العامل الهندي نظرة احتقار تجعل من لديه شيء من الخجل يتصبب عرقًا أو يفر هاربًا بحماقته.. وبرغم صخب الجميع استأذن الهندي من السيدة أن يُعطيه الوجبة ليخلص الجميع من حماقته، فوافقت متضررة، وانصرف الأحمق بعدما أخذ الوجبة وحفنة من اللعنات والسباب!

توموووو وجيري!

ممرٌّ ضيق كافٍ لمرور المُقبل والمُدبر، على جانبيه تقابلت أبواب مكاتب حَوَتْ بأحشائها رجالًا أنهكهم العمل طوال اليوم ولم يَبْقَ على انصرافهم سوى دقائق معدودة. ألزمتهم بالبقاء وانتظار الدقائق تنقضي آلة رقمية حديدية سُميت بالبصمة، وقد وضع المديرون ثقتهم الكاملة بها وسحبوها من ضمائر الرجال في مهزلة إنسانية كبرى من وجهة نظري! بدأ الرجال بالتناوب أمام البصمة وأنا معهم مرغمًا غضبان.

وبينما نحن واقفون إذا بصوت شجار آتٍ من آخر الممر ، التفتت الأنظار تجاه الشجار لنجد فرسي الرهان في العمل، كناريا وأبو سمرة، في إحدى مشاحناتهم الرتيبة المعتادة. أيام العمل مشحونة دائمًا بالشد والجذب والتنافس الأخلاقي تارة واللاأخلاقي تارات كثيرة.

سدًّا الممر ودخلا في وصلة صراخ وإلقاء باتهاماتٍ اعتدنا عليها بينهما، على شاكلة ترتيب المكائد لعرقلة كلٍّ منهما لعمل الآخر. فورة تقوم بينهما بين الفينة والفينة ثم تهدأ ويعودان لتقاسم العمل. يتحججان دومًا بالخوف على العمل والرغبة في إتمام المهام على الوجه الأمثل من وجهة نظرهما، وحقيقةً لا نخرج لا بوجه ولا بقفا! فالإزعاج وسماع ما لا يحلو وتربصهما ببعض هي النتيجة فقط.

لم أملك الشغف الكافي والفضول الوافر لسماع المزيد من شجاراتهما

الحمقاء. اخترقت وقفتهما كمتبارزَيْن في ساحة قتال غير عابئ بصرخاتهما البلهاء، فقط صُبَّ جل اهتمامي على الانصراف لأخلع عني رداء التعب والإرهاق.

كادت تغلبني جاذبية جفوني للنوم إثر يوم مرهق، لكن يأبى عناد عقلي النوم قبل مشاهدة ما يُثري النفس ويصفي الذهن وينشط كارت الذاكرة (memory card) بالعقل الذي امتلأ بالثرثرة والمشاحنات التي لا تجلب إلا ضجيجًا في الأُذن وضياعًا للوقت.

لجأت إلى مركز التجمع الرسمي، التلفاز، لعلِّي أجد ضالتي بين أقماره الصناعية ومحطاته الفضائية.. بدأت أتنقل بين قنواته، فأنا منذ حين لم أتجول بين حُفر ذلك التلفاز، والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه! تحمستُ بكل ما أملكه من حسن نية وفضول لمتابعة إحدى المناظرات العربية التي لن تراها إلا على القنوات العربية حصريًّا (exclusive) لعداء كل طرف للآخر، والتوبيخ، بل تطور الأمر للمشاجرة بالأيدي. وتذكرت بهذه المناظرة البشعة المشاجرة التي للتو تركتها في العمل بين كناريا وأبو سمرة، فجال بالي لدقائق فيما يكون قد حدث بعد انصرافي، ثم تنبهت أني أفسد على نفسي راحتي قائلًا: تبًّا لهذه المناظرة التي كانت الهُدر الأول لي أمام التلفاز! أعادتني للتفكير في العمل من جديد، فلأتَناسَ العمل قليلًا الآن!

أمسكت بقضيب التلفاز المسمى الريموت حيرانَ أبحث عن قِبلة صالحة تتلقفني، أسفًا عن مشاهدتي لتلك المناظرة البائسة بمناظريها.

وجدتُها.. إنها الرياضة.. بذلك أُحدث نفسي حين قررت مشاهدة القنوات الرياضية، متشوقًا لمعرفة أخبار المحبوبة كرة القدم عامة

ولتغذية أهلاويتي التي لا أُخفيها خاصةً.. أخذني تهوري وطيشُ شبابي وشاهدت أحد البرامج الرياضية المواتية للغروب، وما إن أبقيت القناة حتى شعرت بمجيئي في وقت غير مناسب، إذ بدا أن الكابتن مُقدم البرنامج خالع رأسه في وصلة من أفخم وصلات الردح وأعلاها انحدارًا، فيها من الهمز واللمز والسخرية ما فيها، مذكِّرًا بها الكابتن الآخر مقدم أحد برامج الشرشحة (الرياضة سابقًا) بتاريخه الأسود في الملاعب وفساده الشره في الاتحادات وما إلى ذلك من اتهامات كفيلة بتأذي شيطان مريد من سماعها.. استمتعت حقًّا برياضة فريدة لن تقدر لياقتك العصبية على تحملها إلا إذا أتعسك حظك وأصبحت من قاطني النيل سات!

يا نفس توبي إلى بارئكِ واستمعي ما يُهذبك ويَربِطُك بحبل السماء المفتول!

بتلك الكلمات أُفَخِّم قرار التنقل بين المحطات الدينية، أملًا في أن تُذهب الرجس وتصفي النفس والسريرة. هبطت بالريموت كنترول عند المحطة المُرادة، وعلى غِرَّة من أمري وبدون سابق إنذار فور هبوطي التَهمني صراخ أحد الشيوخ كالأسد الجائع، فقلت بعفويةٍ شديدة مشفقًا عليه وكأني بجوارِه: "اهدَى على نفسك يا مولانا!". انسابت الرغبة في أوردتي لمعرفة ما جعل الداعي إلى الله يخرج عن طوره ويُشنف مسامعي بغيبة هذا وهجاء ذاك. وحين غزلت خيوط الحوار فطنت أن الحوار ليس بالديني الذي يُنقح لي ولمن مثلي من العامة غير المتفقهين بالدين الأحاديث الصحيحة من الضعيفة أو يُعلمني آداب الحوار أو حديثًا عن سِيَر الصحابة والتابعين، ولكني وجدته حوارًا سياسيًّا يرُدُّ فيه مولانا على أحد رؤساء الأحزاب المسماة بالليبرالية

الكريهة الكافرة على حد وصف مولانا.. ظللت أسبح في مستنقع الألقاب السيئة التي خرجت من فم الشيخ وسط غفلة مُحزنة منه ومن القناة الدينيةعن قول الحق I: [وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ].. صدق الله العظيم.

يا إلهى!! المصريون أصبحوا لا يطيقون العيش بلا صراعات ونزاعات.. يتشاجرون في العمل، ويتشاجرون على شاشة التلفاز، ويتشاجرون في بيوتهم.. قلب المصري وخُلقه صارا مرتعًا للصخب والشجار. أمرُ الله!

يبدو أنْ لا راحة لي في مشاهدة البشر الآن.. إذن فلتكن آخر محاولاتي بين يدي الأطفال وبرامجهم الكارتونية المضحكة. بعد لحظات الصمت المصاحبة لتغيير المحطة، كدت أنفجر غيظًا وأبكي حنقًا حين رأيت الكارتون المُفضل لدي "تومووووو وجيرى" كما ينطقه المصريون، وحقيقة لا أدري ما سر تحول اسم (توم) إلى (توموووو) إلا أن المصري يأبى مرور الشيء دون أن يضع "التاتش بتاعه".. تلك المرة الأولى لي منذ وُلدت أقابل تومو وخناقه جيري بوجه عابس، ولكنهما أتيَا في غير موعدهما وقد امتلأت حياتي منذ الصباح بالقطط والفئران، ويضيِّق صدري برؤية أي صراعات أخرى ولو كارتون!

فضُّ الاشتباك

يُحبُها.. ويعلم أنه يُحبُّها وإن زهدها بعض الوقت زُهد الكسولِ من صِعاب المهام. كلما أقنع نفسه بكرهها عاد خائبًا مهزومًا أمام ظهورها المثير وإرادته المنكسرة وشهوته المهتاجة.

جمال الروح والخِصال يحركان شهوة العقل، وجمال الجسد يحرك شهوة الجسد، وكلاهما يغوي الفريسة بالتذوق. الفريسة رجلٌ قد شغفه جمال قوامها اللين النحيف كراقصة باليه قادرة على تجميع أركان جسمها في نقطة واحدة بليونة ومرونة فائقة، فضلًا عن تأنقها الدائم وتقلبها بين الموضة والأخرى.. لديها القابلية للتنوع والقدرة على الاندماج وسط ثقافات البلاد الكثيرة التي ارتحلت إليها استمتاعًا، مما يضفي على روحها خفة وتألقًا خطفت بهما قلب حبيبها الهائم العاشق طالب الوصل ومن ثمَّ التذوق!

الحب الغامر من الرجل لها يفيض، والاشتياق على أشده، والشهوة تصطدم بالاشتباك!

اشتباكها يخرج من رحم ليونتها. اشتباكٌ طارئ عليها من غليان غضبها كلما رأتِ الشهوة تطل من بين عينيه، لا اشتباك أصيلٌ في طبعها، فطبعها ومظهرها كلاهما جُبِلا على البساطة والنظام والتفرد

وليس على التداخل والاشتباك، لكنه العناد والتذمر الأنثوي الذي يحل بين لحظة وضحاها فوق رأس من غلبته حماقة الشهوة وعاملها جهلًا وحقارة كمسلك للنشوة فقط!

أيقن بأنه لا يُجيد التعامل معها، ولكنها ما زالت تُحرك شهوته.. حاول عدة مرات التحلي بالصبر حتى تلين له ليونتها المتشبثة بأجزائها، فكلما اقترب منها تيبست وتشبثت بأجزائها أكثر وأكثر، تُخفي ما لديها من زينة وغوايات تحت اشتباكها العنيد. قرر خوض عراك فض الاشتباك بالشد تارة وبالجذب تارة وباللف والدوران تارات أخرى، لكنها أعنتته كثيرًا، فنفد صبره وغلبه الكسل سريعًا، بل دبَّ كره كاذب في قلبه لها، وكم من المحاولات التالية والتالية والطرق التي اتبعها لكسر عصيانها عليه، عصيان تسليم نفسها ليأخذ متعته بلا عناء فض اشتباكها الجسماني!

بعد فترةٍ من النسيان الكاذب رجفت عواطفه ولعب لُعاب شهوته بتذكرها، وما كان عليه إلا أن حنث بوعده بالابتعاد عنها والتخلي عن منطقه الشهواني بأن التذوق ومتعته لا يقف عليها، فهناك الكثيرات غيرها وربما شبيهات لها ستحلو معهن أوقاته. وبالفعل ذاق الأُخريات ولكنها ظلت عالقة بذهنه، إلى أن غلبه حبه وأخذ قراره بإعادة الكرّة مع حفنة من الصبر والكثير من المهارة لفك شفرة التعامل المتشابك معها.

كانت هذه المرة متأنقة بمظهرٍ شهي وإضافات جمالية حارة جعلتها أكثر إثارة وكأنها تثير استفزازه أكثر، ولكنه تحلى بالهدوء

رغم زيادة تعنتها أمام شهوته، وفضَّل التريث والتروي على الاندفاع، وأمسك بزمام الأمور وراح يفك تشابك طبعها العقدة تلو الأخرى في حالة من الرضا ناحيتها، ولربما استشعرت لأول مرة حسن تصرفه وانصرافه عن الشدةِ التي أطاحت بها في مرة سابقة على الأرض جراء دفعه لها بعد تذوقه فشل المرواغة والفض.. حرص تلك المرة على أن يشعرها بالاطمئنان والاستمتاع، إلى أن ارتخت بين يديه تمامًا واستطاع فض اشتباك جسدها، وانهمك متلذذًا بطعمها الحار في فمه حتى أفضى شهوته وشبع عقب جوعٍ قارص.. ثم نهض منتشيًا بعد أن فرغ من وجبة المكرونة الإسباجيتي المفضلة لديه!

الـجري كل الجدعنة

اطَّلع عمر على الصورة المتداولة بمواقع التواصل الاجتماعي باهتمام ودهشة قبل أن يطرق ذاكرته للتذكر قبل قرابة عشر سنوات من التاريخ المُدون على يمين الصورة: صيف 2002..

حينها كان مراهقًا حديث السن لم تثقله التجربة، ولكنه ليس بتافه.. يعي ما يدور حوله من مجريات وأحداث وطنه ومحيطه. ربما كان يفتقد لحذلقة لسان صديقه باسم لا سيما وأن باسم يكبره بعامين. حذلقة اكتسبها باسم من قراءاته السياسية منذ نعومة أظافره، فضلًا عن كون أبيه يمتهن المحاماة مهنة الحوار والحذلقة الكلامية التي لا نهاية لها إلا وأنت مُنهك من التعب أو الجدال أو كليهما معًا.

بواكير الصيف قد حلت بالحرِ والصهد والرطوبة والإجازة، وشرع التلاميذ ومن بينهم عمر وباسم في قضاء أوقاتهم بين اللعب والسفر والتنزه وقليل من القراءة وكثير من جنون الفضول يعقبه فضول الجنون.. وكان الصديقان يتصيدان الفرص والأوقات لإشباع رغبات المرح والانطلاق بعد عام دراسي مليء بالضغوط والكبت، ومقولة واحدة تُعاد وتكرر بلا أي اتفاق من الآباء: «قوم ذاكر».. المقولة التي

قطعت أوصال الود بين كثير من التلاميذ والتعليم.

مع حلول الألفية الجديدة شهدت صناعة الفن السابع، السينما، طفرة شابة أنعشت مواسمها وثبتتها من بعد مرحلة غير مستقرة في منتصف التسعينيات. عاد الصيف يُنتظر بأعماله الفنية ويجمع فئات الشعب أمام شبابيك التذاكر في ثراء فني، خاصة إذا احتوى العمل على زخم فكري ومتعة حسية وتمثيل صادق وهمٍّ وطني، كذلك الفيلم الذي اختاره الصديقان عمر وباسم للاستمتاع به في ليلتهما تلك، وقد اعتادا وجرت العادة أن يذهبا للسينما كل صيف منذ أن شبت أقدامهما على الأرض واستطاعوا الخروج بمفردهم كأسلوب من أساليب تحمل المسئولية من قِبَل الأهل بعد أن اخترقا المراهقة أو اخترقتهما هي كما جرت الطبيعة والحياة.

قرَّرا دخول حفلة السادسة مساء كما تعودا، أو بالأصح كما قرر الآباء. أخذ عمر النقود ووقف في طابور طويل تتعرج كعادة طوابير مصر كلها، وحاول فهلوي الطوابير الشهير اختراق الصف، وتشاجر الآخرون نتيجة التدافع حتى وصل عمر إلى الشباك وحجز تذكرتين بمنتصف الصالة.

شاهدا الفيلم في صمت وتركيز رغم عويل الأطفال من حولهما، والمِزاح غير المنضبط في غير وقته من شباب قد يكونون أكبر من الصديقين عمرًا، ولكنهم أصغر منهما أخلاقًا وتحملًا للمسئولية.. على كل حال استمتع الصديقان بالفيلم وترك لديهما تخمينات وظنونًا فتحت مجالًا لحوار طويل بدأ بمجرد أن وطئت أقدامهما

خارج السينما حيث الهواء الفسيح رغم الصيف، والشوارع الحاضنة للناس، والناس الساكنة للشوراع!

بدأت رائحة نظرية المؤامرة المعتادة لدى باسم في الفوحان، وصمت صمت المتدبر ووضع إصبعه فوق شفتيه وضع المتفحص للأمر ثم أطرق قائلًا:

- الفيلم جيد، لكنه موجه من نظام الدولة والحكومة، وبالأخص المخابرات، للترويج لنظام مبارك من مدخل أمن الوطن، وكيف أن مبارك ونظامه قادرون على سد الثغرات التي يمكن للعدو الخارجي التسلل عبرها، وتغذية هذه الإشارة بداخل عقول الشباب من خلال السينما حتى ينشأ الشباب حريصين على استمرار النظام متمسكين به أكثر من آبائهم، لأنه الحصن المنيع والأمان المطلق. ولا سيما إذا جاء الفيلم في نطاق انتمائي مفعم بالمشاعر الوطنية المدعومة بموسيقى تصويرية وأغنية عن حب مصر تقشعر منها الأبدان، فيزيد الانتماء للوطن والنظام معًا، كما يظنون!!

أخذ عمر بدفة الحوار وبدأ مما انتهى إليه صاحبه ومعترضًا عليه:

- أظن أن فيلمًا سينمائيًا غير كافٍ لزيادة الانتماء أو تثبيته سوى لدقائق عرض الفيلم فقط، زائد عدم موافقتي على كل أركان نظرية المؤامرة التي عرضت بها رأيك في الفيلم.. أؤيدك أن النظام يريد تثبيت أركانه إلى ما لا نهاية، ولكن لن يستطيع فعل ذلك بغير عمل فعلي للشعب والشباب خاصة، فإذا لم يفعل النظام ما يُصلح

الأوضاع ويحسّن من معيشة الناس فسيلاحقه الفشل وتعم الحاجة لدى الناس ويصرخ الجميع، فأيها أكثر دعمًا للانتماء: فيلم رائع، أم توفير فرصة عمل لشاب خريج لا يجد قوت يومه، أو إيجاد مسكن وبيئة صالحة لأطفال الشوارع الضائعين نواة البلطجة والإجرام في المستقبل القريب؟!

قضيَا ليلتهما ترجلًا ونقاشًا بطرقات مصر الجديدة، حتى وصلا لميدان روكسي حين دقت الساعة العاشرة، فقررا الاكتفاء والبحث عن وسيلة مواصلة للعودة إلى منزليهما خوفًا من قلق الأهل وضيقهم أيضًا.

كانت حالة النقاش صافية ودودة، وكان الترجل فطريًّا مسترسلًا كمياه الشلال النابع، فأبيا إلا استكمال هذه الحالة الرقراقة، واقترح عمر أن يخوضا تجربة جديدة ويأخذا ترام مصر الجديدة. وجد الاقتراح الترحاب لدى حالتهما المزاجية، لا سيما أنه حالة وسطى بين الترجل والاستقلال لحافلة؛ وذلك لطبيعة الترام البسيطة المائلة للشارع أكثر منها لانغلاق الحافلات.

وقف الصديقان بالمحطة المهجورة ذات الكراسي المتهالكة بميدان روكسي ينتظران الترام المتجه إلى رمسيس حيث مهبط الصديقين بمحطة غمرة، جاء الترام المنتظر وهما في الحديث منغمسان والساعة متأخرة نسبة لوافدي الترام.. صعدا درجتي الترام المنخفضتين وراحا يتأملان ما بداخل الترام من بؤس المنظر وأزلية ملامحه وهلاك

أركانه، وانزواء شيخ بآخر الترام ينظر إلى النافذة بتجهم وشرود وكأنه لبث في مكانه هذا بضع سنين دون أن يحرك ساكنًا. الفراغ والسكون يملئان جنبات الترام، اللهم إلا من الرجل المُسن والكُمسري قديم الهيئة حليق الرأس ترى بحدقتي عينيه زمنًا ولَّى وكان!

على كل حال كانت المغامرة جديدة عليهما.. في جديد الأشياء لذه ونشوة تخفي نشوز فحواها ومتاعب حشواها.

جلس الصديقان بمنتصف القاطرة مدهوشين تملكهما رهبة السكون وقتامة الترام وكأنه خرج، فجأة من زمن سحيق إثر دعك إحدى آلات الفانتازيا المسماة بعودة الزمن.. خرجا رويدًا رويدًا من حالة الدهشة في بادئ الأمر حين كان يسير على قضيب الطرقات الرئيسية والميادين الشهيرة، ولكنه كشف عن خباياه سريعًا وسلك مسارات معتمة ربما كان المُضي بها نهارًا طبيعيًّا حيث الضوء الجلي والضوح المنير، بخلاف حالها في ظلام الليل والأضواء الخافتة لبعض الفوانيس الرثة فوق أسطح الأكشاك الأقرب إلى العشش على جانبي شريط الترام الحديدى. يظهر على العشش آثار الفقر والبؤس؛ مما خلَّف في نفس الصديقين الرهبة والقلق.. أخذا يتلفتان حولهما.. لا أحد يجيب أو يُطْمِئن حيرتهما سوى الكمسري الذي قدِم إليهما طالبًا حق التذاكر تزامنًا مع تيبُّس الترام بإحدى المحطات الكيئبة في ذلك الممر البائس.

دقائق لم يجد له مُريدًا أو أحدًا من بني الإنسان يلوذ به، وفجأة وعلى

غرةٍ من أمر الصديقين إذا بشابين وصبي لم يبلغ الحُلم يهرولون من إحدى العشش الراكدة ويقفزون إلى الترام قبل أن يتحرك.

شابان مبعثرا الهيئة، ثيابهما تملؤها الثقوب، على وجهيهما سيماء تشرد فاجع وإجرام عتيد، أحدهما أسمر البشرة كثيف الشعر، ترقد على خده الأيسر آثار بِشلة بطول وجهه، جلبت لملامحه غلظة أيدها ذلك السيف المدبب بيده اليمنى. أما الآخر فحليق الرأس قصير القامة قمحي البشرة، لحيته شديدة السواد بغير كثافة، ويحمل في يديه سنجة يطوّح بها يمينًا ويسارًا في الهواء.. أما ثالثهما فهو صبي في قرابة الثانية عشرة من عمره وقد انسلخت براءة الأطفال من عينيه وحلَّ مكانها جحود وشراسة عاتية!!

الخوف والدهشة كتما أنفاس الصديقين.

الخوف يُلجم صاحبه.. يُذهب عقله كمخدر يحجب رؤية التفكير السليم والتنفيذ الحتمي، الخوف هو الوقوع قبل المبادرة، والهزيمة من قبل البداية، والبداية لنهاية مرتعشة.. الخوف هو عدو الحياة.

تلاشيَا النظر في أعين ثلاثي البلطجة ولو فضولًا؛ حتى لا يهتاج البغي والاعتداء بداخلهم ظلمًا وعدوانًا.. نفسية المنحرف ضعيفة في داخلها وإن أظهر البطش، حتمًا لديه نقيصة يخفيها خلف ستار القسوة والجبروت، يعوض ثقته المفقودة في نفسه بنظرة الخوف والذعر المطلَّة من أعين الناس، وإن نظر أحد إليه ولو صدفةً اعتبر الصيحة عليه واهتاجت كمائن عدوانه خوفًا من أن يفترس خزائن

ضعفه.

ظل حامل السيف ومُطوح السنجة في الهواء يترنحان أثناء سير الترام يمينًا ويسارًا تحت تأثير المخدرات التي أعمت عقولهم وبصائرهم. بينما جلس الصبي المشرد على المقعد الأيسر المقابل للصديقين، راح يتلفت حوله حذرًا، ليس ذعرًا، مما أثار فضول عمر بعض الشيء ليسترق النظر تجاه ملامحه وشراسه عينيه حتى حُفرت ملامح الصبي في ذهنه.

قطع استراقه النظر هذا نداء صارخ للصبي محمل بالسباب من أقرانه، هبَّ الصبي لنداء الشيطان ثم انزوى الثلاثة إلى ركن العربة بجوار الباب الأمامي الأقرب لسائق الترام يتهامسون بحديثٍ من غير إشارة وكأنهم يتباحثون أمرًا جسيمًا استوجب الإنصات والتركيز!

الدقائقُ بل اللحظاتُ تمر على الصديقين ثقيلة بالخوف والحذر وكأنها دهر.. لم يتبقَّ على وصولهما سوى محطة وحيدة، وما زال ثلاثي البلطجة يتهامسون، وبينما هم على الحالة ذاتها قطع الكمسري اندماجهم الشيطاني متمتمًا بكلماتٍ لم يَعْلُ صوتها للحد الذي يُمكِّن الصديقين من السمع.. بدا من حديثهم معرفة الكمسري بهم واعتياده على حلولهم بالترام ليلًا لإثارة الفوضى والشغب!

تحاور الصديقان في خفوت حول طريقة النزول من الترام. لم يكن نزولًا بل هروبًا؛ لما يعتريهم من رهبةٍ وظنون حول ما يمكن أن تُخبئ لهم اللحظات القادمة على أيدي ثلاثي البلطجة المسلحين..

اقترب الترام من المحطة المنتظرة "غمرة".. محطة معتمة ملقاة تحت كوبري أكتوبر الشهير، لا يشعر بها أحد، مجهزة تجهيزًا فاخرًا لتكون مرتعًا للجريمة والانحراف.

همَّ الصديقان بالوقوف في حذر تزامنًا مع انتهاء التهامس الجانبي بين المنحرفين والكمسرى. تركهم الكمسري واتجه نحو عمر وباسم مستوقفًا إياهما قبل دخول الترام المحطة في أقل من دقيقتين من حديثه لهما قائلًا:

- بص يا ابني انت وهو.. العيال السوّ دي اتفقت معايا اني اعطلكم قبل ما تنزلوا بحجة التذاكر عقبال ما ينزلوا هما يستنوكوا قصاد الباب.. عايزين يثبتوكوا ويأخدوا كل اللي معاكم وينصصوه معايا.. أنا جاريتهم في الكلام وهما فاهمين اني بعطلكم دلوقتى.. شوفوا من غير كلام كتير، أول ما التروماي يقف تنزلوا من الباب القريب ليكوا ده و«الجري كل الجدعنة مش نصها» وفي لمح البصر يبقى كل واحد فيكوا في النور ماشي.. يالا بسرعة أهو التروماي هيقف!!

فعلا كما نصحهما الكمسري النبيل ورسم لهما خطة النجاة. بمجرد وقوف الترام بل قبل تيبسه قفز الصديقان، وأعقبا القفزة بالجري، عبرا درجات السلم الكثيرة الفاصلة بين عتمة المحطة وأنوار الشارع الرئيسي، بينما كان ثلاثي البلطجة يلهثون حول العربة لعلهم يلحقون بفريستهم!

كتم عمر سر هذه الليلة في قلبه طوال عشر سنوات.

لم يقصّها على أحدٍ قريبًا كان أو غريبًا. ظن بفقدانها من خزائن ذكرياته، أو ربما تعمد نسيانها؛ فهي لحظة خوف وضعف يكره تذكرها.. لكنها برزت أمام عينيه بكل تفاصيلها حين رأى صبي الترام المشرد وقد صار شابًّا مفتول العضلات وهو يُلقي بنيران المولوتوف بيده اليسرى، وممسكًا سيفًا قبيحًا بيده اليمنى، عبر صورة التقطتها عدسات الكاميرات ودُوِّنت بتاريخ 2011/11/17.. حريق المجمع العلمي!

عمارة الخواجات!

اعتاد صديقي الخمسيني صابر أن يفتح صندوق ذكرياته كلما تلاقينا، ولا سيما إنْ أثَرْتُ غزيرة التذكر بداخله بسؤاله عن حالٍ من أحوال الماضي أراها أفضل من اليوم وودت كشف الكثير من أسرارها، وما يكون سؤالي سوى إشارة البدء ليمضي في طريق التذكر يستخرج أصداف وجواهر الذكريات، فالتذكر مرضٌ وصحةٌ، فهو مدعاة للشجن والابتسام، النشوة والألم، وربما غلب صاحبه الندم!

بدت على ملامح صابر سُمره أسوانية مشربة بالطيبة والأصالة، نزل إلى القاهرة مع أبيه منذ نعومة أظافره ولم يقضِ بأسوان سوى شهور قليلة ثم حكمت المعايش على أسرته بالارتحال إلى ما هو مجهولٌ حينها. إلا أن مجهول القاهرة لدى المرتحلين إليها ممزوج بالنشوة والترقب، فوفق الاعتقاد السائد أن النزول للقاهرة بمثابة الخروج من الضيق إلى السعة، أو من العتمة إلى أضواء المدينة!

برغم ذلك كانت أسوان ولا تزال صاحبة تمدين خاص بها كالقاهرة والإسكندرية؛ لكونها مهبطًا سياحيًّا فريدًا يجلب الجنسيات الأجنبية المتعددة، وما يصاحبه من ثقافات مختلفة ولغات أثْرَتْ حياة أبناء أسوان إنسانيًّا ومن ثَمَّ فكريًّا. ولعل هذه التركيبة التي جعلت الحاج

شاهين أبا صديقي صابر يفكر في السكن بأحد الأحياء الراقية حديثة النشاة – حينها– التي لا تخلو من الجنسيات الأجنبية مثلها مثل أغلب أحياء العاصمة، وإن لم يتعمد السكن بجوارهم، ولا سيما أن التواجد (الخواجاتي) الآمن في مصر قد بدأ في التراجع منذ ثورة يوليو 1952 ومراسيم تأميمها اللا أخلاقية، إلى أن بدأ فعليًّا في الاندثار قبيل انتهاء العهد الناصري، عهد الفقدان والاندثار، وبمنتصف العهد الساداتي، عهد انفتاح السداح مداح وانحدار الذوق العام!!

كان الخواجة البلجيكي (البارون إمبان) في استقبال الأسرة الأسوانية قبل قرابة خمسين عامًا من ارتحالهم للقاهرة، حين أسس حي مصر الجديدة (هيلوبوليس) عام 1906، الذي اختاره الحاج شاهين رب الأسرة للاستقرار والإقامة به.. شارف العقد الستيني على البدء وقت ما أشار أهل الخير على الأسرة الأسوانية بالبحث عن مسكن بأحد العقارات المملوكة للخواجات، حيث أعلن الخواجة «ياني» عن خلو شقتين في عقاره ويسعى لتسكينهما من جديد.

يبدو أن الخواجة صاحب العمارة كان محظوظًا ، حيث رُزق بساكنين في يوم واحد، الحاج شاهين الأسواني وأسرته، والأخوان المصريان التاجران وديع ومنير.. أُبرِمت العقود وسكنت الأسرتان، إلا أن التاجرين أبرما عقدًا آخر مع الخواجة، حيث استاجرا المحل الكبير الواقف أسفل العقار بجانب مدخله، وقسماه إلى جزئين، الأول صغير للخردوات وأداره منير، والثاني كبير للملابس الجاهزة وأحذية باتا وأداره وديع!!

أكثر أهل العمارة خواجات يحملون جنسية صاحبها اليونانية، فضلًا عن المصريين القاطنين بها الذين لا يقل عدد شققهم عن ست شقق وُزعت قدريًّا على أدوار العمارة، وجاء قدر أسرة الحاج شاهين في الدور الخامس أمام شقة الخواجة (بنايوتي) صاحب محل الصابون المقابل للعمارة وزوجته مدام ميري.

لم تَطُلْ فترة اندماج الأسرة الأسوانية مع أجواء القاهرة أو سكان العمارة. ما هي إلا اسابيع قليلة حتى مُد حبل الوصال وفُتحت الأبواب للزائرين مادين أيادي الود والمساعدة، بل إنه في غصون أقل من عام تألفت صداقات يستغرب الغريب ودها ويظن أن أطرافها قد قضوا مع بعضهم دهرًا.. أبرزها كانت صداقة الحاج شاهين مع التاجرين وديع ومنير، ولعل الود بين شاهين ووديع كان أعمق للحد الذي يصل إلى استحالة انقضاء يوم دون الجلوس معًا أمام محل وديع أو في أحشاء المقهى المجاور للمحل، وزادت القصيدة أبياتًا من الحب حتى بلغ موطن جمالها أنه إذا ذهب أحدهما لشراء شيء ما اشترى مثله للآخر أو ذهبَا معًا لإتمام الشراء.

لم يختلف نهج الترابط كثيرًا بين زوجة الحاج شاهين وجارتها مدام ميري، فالأبواب لا تُغلق إلا للنوم، وما من طعام يُؤكل إلا وتقاسما فيه. أما المشورة والنصح فصارا أقرب للنفوس من اعتباره تدخلًا وفضولًا، بل تسربت الصداقة والود ببديهة الحال من الكبار للصغار ومن الآباء للأبناء.. وطالما قص عليَّ صديقي صابر عن صداقته لأبناء الجيران الخواجات منهم بجانب المصريين بلا أي فرق أو عنصرية، ولا يزال يتذكر أسماءهم وحبهم لمصر ونوادرهم الكثيرة،

كنادرة صديقه الشاب حينها (يورغو) الساكن بالدور الثالث حين قُبض عليه في الطريق العام وطالبوه بإبراز بطاقته الشخصية، وحين غرتهم لهجته المصرية البحتة لم يركنوا لصراخه المعلن بين نبراته عن يونانيته.. عندما طالبوه بإبراز هويته المصرية المتمثلة في بطاقته ولم يجدوا اعُتبر متهربًا من التجنيد، وشرعوا في إجراءات إلحاقه بالخدمة العسكرية، وأتم الموس الميري مهامه على شعره فطرحه أرضًا، وقبل أن يجن جنون الخواجة يورغو أتاهُ الفرج من قِبَل أهله وسفارته التي أثبتت يونانيته بالأوراق، فخرج وقد خسر شعره وبقيت نادرته تلك تُحكَى إلى أن اشتعل رأسه شيبًا!!

يعصف الحب والهوى بقلوب الصبيان على عَجل من البلوغ والمراهقة، ولا سيما إن امتلأ المحيط بالفاتنات الخواجات الشقراوات.. التفت قلوب شباب العمارة ومُراهقيها حول فاتنة العمارة والحي (مارجو اليونانية) القاطنة بالدور الثاني، الشقراء اليونانية ذات الشعر الكستنائي الأصفر وقوام القصور المشوق، وروحها المفعمة بالألوان والبهجة وابتسامة مشرقة دومًا خفقت لها قلوب الهائمين السُهاد من شباب العمارة والحي مصريين كانوا أو خواجات! وكم من مترصد بغير سوء لطلتها ليعبر لها عن فجيعة حاله في عشقها لعله ينال قبول الهوى والاختيار رغم تيقنهم بعلو نجم الثريا عن أيديهم، لكن العشق خارج القانون وعكس الجاذبية، فإن هبط على قلبك صعد بك وحلق إلى حيث تخشى السقوط فيتبدد شأن سلامك النفسي!!

حكى لي صديقي صابر عن تذكر شيوخ اليوم شباب الماضي لواقعة

تعرُّض فاتنة الحي للمعاكسة الكلامية من قِبَل أحد ضيوف الحي لا أهله، وكيف هبَّ الجميع لنجدة ابنة حيّهم، لا لجمالها بل للرجولة والنخوة، وحين تكررت الهبَّة نفسها عندما تعرضت لواقعة مثيلة فاطيمة بنت الحاج الشيبي والأسرة الفلسطينية القاطنة بالدور الثالث، وقد نزحت من فلسطين عقب نكبة 1948 وطاب لهم المُقام في عمارة الخواجة ياني!!

أصلُ الحياةِ تداهم، وإن تركتك بعض الوقت لمداهمة من سبقك في العمر ومن ثَمَ التجارب والخبرات، ثم يحين ميعادك المحتوم لتُعيدك إلى نقطة البداية ببراعة فائقة وسرعة تخطف روحك قبل بصرك، تُعيد سيرة ضعفك الأولى على مرأى ومسمع منك، فهي لا تخفي عليك الأمر، تُنبهك بضعفك بين يدي قوتك عبر عرقلة لم تتوقعها أو وعكة ألمت بك فجأة أو تَقَلب افترسك في أمرٍ فرضت فيه الثبات طيشًا!!

داهمت الحياة سكان العمارة مصرييها وخواجاتها بكبر السن والشيب، فضلًا عن القهر والكمد الذي شعروا به عقب نكسة يونيو 1967، وعزَّ عليهم أن يروا تلك البهية التي احتوتهم دومًا منكسرة مهزومة بغير معركة، فزادوا كبرًا فوق الكبر.

ومنهم من لم تغب عن شمسه الحماسة وطرد غبار اليأس من نافذته وأصرَّ على البقاء إلى أن يتحقق النصر، مثل الخواجة الشاب يورغو صاحب واقعة التجنيد، وقد استغرب الناس حينها من تهافته على البقاء في مصر وعدم سخطه عليها، وكان في وسعه أن يرحل لمهده الأصلي، ولكن ثقته كانت كبيرة أن مصر أكثر ألفة ومحبة من

غيرها ولو طاف الظلم حولها.. وظل الخواجة متمسكًا بالعيش فيها إلى أن غادرها كآخر خواجات العمارة بعدما اختلط بياض رأسه بسوادها عام 1994.

ومنهم من زهد في الحياة أو زهدت هي فيه وهنًا وضعفًا، كصاحب العمارة الخواجة ياني، فتخطى السبعين من عمره قرابة انتهاء العقد الستيني، وأقدم على تحقيق الزهد فعلًا لا قولًا.. ولعل وحدته ساعدته على تنفيذ ما كان يختزنه بقرارة نفسه من أمر بيع العمارة لدار المسنين في الحي، على أن يكفلوه هو وجميع قاطني الدار من حصيلة إيجار شقق العمارة إلى أن يتنيح ومن بعدها أيضًا.

الحنين لترابك الأصلي لا حرج فيه ولا عيب، بل هو أصل الفطرة وفطرة الأصل.. خاصة إن شعر من هو بعيدٌ عنه بدنو الأجل وتمنى أن يُدفن فيه كحال الخواجة بنايوتي وزوجته ميري، اللذين أخذا قرار العودة عقب النصر السبعيني المبين، فباع الخواجة شقته ورحل من حيث جاء إلى تراب اليونان!!

أما الصديقان الحاج شاهين والتاجر وديع فاستكملا رحلتهما معًا بكل الحب والإخلاص والتسامح، وأتم كلٌّ منهما رسالته تجاه وطنه وأولاده، وحقت عليهما مداهمة الحياة برؤية أبنائهما يسعون بين أيديهما إلى أن قابلا وجه كريم تاركين وراءهما الذكرى الحسنة والعشرة الطيبة.

قطار مصري

قرابة التاسعة مساءً التف خمسة من الشباب بانتباه حول تلفاز لا صوت يعلو فوق صوته، حيث أطلّت مذيعة حسنة المظهر، وقورة أنيقة، مُعلنةً بصوت شجي: سيادتي وسادتي، نقدم لحضراتكم الآن هذا البيان الهام من رئاسة الجمهورية.. ثم تحولت الشاشة عن المذيعة لإعلان البيان التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المواطنون.. في هذه الظروف العصيبة التي تمر بالبلاد، قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد،
والله الموفق والمستعان".

كانت فرحته غامرة صامتة، لم أرَ له دمعًا لكنني شعرت ببكاء أجزائه، انتابتني الدهشة من ملامحه التي تحدثت بلغة القوة والشجن، وجهه الطولي ذو البشرة القمحية في أبهى صوره، ترتسم

على شفتيه ابتسامة مشدوهة، وعيناه منتبهتان في تحديق، وجبينهُ قد اتسع كأنه يحاول إدراك سعة لاحتواء أفكاره، قلبه يرتجف ودقاته تزداد الدقة تلو الأخرى.

ظللت أنظر في عينيه وأُحدث نفسي:

أهذه فرحة القيام بثورة؟!

أهذه فرحة سقوط نظام؟!

انصرف صديقي إلى غرفته هائمًا سارحًا متمتمًا بكلمات لم أفسرها.

ذهبت خلفه أداعبه باللين تارة وبالثقيل من الدعابة تارة أخرى كعادتي معه، وبحكم علاقة الصداقة الوطيدة التي قُدر لها الوجود على أيدي الغربة.. فمن جرَّب الغربة كمن نزل المحيط وهو يجهل الفرق بين سمكه الوديع وقرشه المفترس! وما أكثر القروش! وما أقل السمك! الغربةُ اقتلاع مفاجئ يهدد حرمك الآمن، تزيد من أيامك أيامًا ومن العمر ليالي، تذهب بالاعتياد إلى حدود الخوض والمجازفة، وقد أفلح من تعايش واشتاق، وقد تاه من عشق وانسلخ!

اقتحمت خلوته ورأيت صديقي أحد أسماك الغربة الوديعة مستلقيًا على منضدته ينظر إلى سقف الغرفة مرددًا: "لن ينقرضوا". بادرته بالسؤال عن حاله وما أصابه من فرحة يصحبها الشجن، لم يسارع بالكلام للحظات حتى ظننته لا يرغب في التحدث، إلا أنه أنزل رأسه إلى مستوى رأسي وعيناه زائغتان تحاولان الإمساك بلحظة بعينها، وأخيرا تنهد وبدأ في الحديث بنبرة هادئة مفعمة بالدفء وكأنها دبت الروح بها بعد لبثٍ طويل، قائلًا:

أتذكر جيدًا ذلك القطار السريع القادم من الإسكندرية، وأنا أستقلُّه عائدًا من الإجازة الصيفية برفقة عائلة أمي المكونة من جدي وجدتي وخالي، وبطبيعة الحال أمي، لا شيء معي سوي أحلام الصبية وأمل البقاء نقيًّا لا تمسني خربشات الحياة. حينها كنت صبيًّا هادئ الطبع إلى حد كبير، حالمًا بعض الشيء، لا أعلم من حيَّات الدنيا إلا قليلها، ليس جهلًا بها، لكن رومانسيتي سبقت واقعيتي.

منذ أن وضعت قدمي في القطار، بدأت أسرح في مستقبلي وتحدياتي والسعي وراء ما أود أن أكون في هذا المجتمع، خاصةً وأنا بصدد خوض أهم معتركاتها الدراسية؛ الثانوية العامة.. في غمرة تأملي وشرودي أخرجتني أمي الجالسة بجوار جدتي من هذه الحالة بحديثٍ خافتٍ مُشيرة أثناءه لمقدمة القطار حيث رجل كبير يبدو على ملامحه الوقار عن بعد، يسند واقفًا بجوار باب القطار. بيد أن الرجل قد لحق بالقطار متأخرًا ولم يستطع اللحاق بمقعد فارغ، فاستندت أمي إلى وجوب توقير الكبير وأشارت عليَّ - كعادتها معي أن تأخذ الأمر بيننا شورى أكثر منه تنبيهًا- أن أستدعيه ليجلس بدلًا مني.. وافقتها على الفور، فضريبة صغر السن التحمل والقدرة والقوة التي يسبقها ضعف ويعقبها ضعف!

وافق الرجل من بعد حياء وثناء وامتنان، ثم بلغته مقعده بجوار خالي، إلا أن فعل الخير رُد في الحال وأبى خالي إلا أن أجلس بجوار الرجل، لا سيما أيضًا وهو يرغب في التقدم بجوار باب القطار حيث الملجأ الذي يلجأ إليه مدخنو القطار كلما اهتاجت أنفسهم واشتاقت للتدخين.. اشتعل رأس الرجل شيبًا ووقارًا، رجل أبيض البشرة

طويل القامة متوسط الوزن، اكتست عيناه بنظارة ذات عدسات مستطيلة، وتزين معصمه الأيسر بساعةٍ رقميةٍ معدنيةٍ صبغ قلبها باللون الأسود، تظهر على الرجل ملامح تنورية من السهل ملاحظتها من تريثه وسماحة وجهه قبل أن يبدأ بالحديث.

بدأ الرجل الوقور في تصفح إحدى الصحف القومية، وفي ذروة اندماجه لمحت عنوانًا بالخط العريض فتدليت برأسي كالزرافة واخترقت عيني جريدته الملطخة بحفنة من النفاق، وتأكدت أن العنوان كان أحد وعود المخلوع الكاذبة برعايته الفائقة للمواطنين وخاصة محدودي الدخل منهم، على هامش أحد مؤتمراته الواهية التي كان دومًا يتخللها نداء أحد المُدربين على النفاق والتهليل صارخًا: العلاوة يا ريس! شعرت بالاستفزاز للحد الذي جعلني اقتحمت على الرجل تركيزه في فضولية شديدة قد يراها البعض طيشًا بل همجية، وقلت مستنكرًا:

– محدودي دخل إيه يا راجل كفاية كدب!

استدار الرجل بوجهه ينظر بتنبه من خلف زجاج نظارته وقال:

– صدقت والله يا ابني.. كفاية كدب فعلًا!

سألني بود عن اسمي، فابتهج ثم استغرب لصغر سني أن يختار لي أبي اسم «مصري»؛ لتداول الاسم بين الكبار فقط. فسرت له استغرابه الذي لازمني منذ أن تعلمت النطق أن سر هذا الاسم هو نذر أبي بتسمية ابنه الأول «مصري» على اسم عمي الكبير الذي استشهد في حرب أكتوبر حين كان أبي على مشارف الخامسة عشرة

من عمره.. الوقوف عند لحظات النصر والشرف نزعة إنسانية حميدة وإن صاحبها الشجن والتأثر، واستحضار أحوالها يضمن لها البقاء في الوجدان ويضيء شموع ذكراها بذاكرة أجيالٍ وأجيالٍ، وأفلح من أرفق مع الذكرى أسس تكرارها ونظريات تحقيقات مرَّاتٍ ومرات.

على نحوٍ ما شعر الرجل أن الحديث معي ربما يكون شيِّقًا ومجديًا أكثر من تصفح الجريدة، فأغلق صفحاتها وافتتح الحوار بسؤالٍ قد اختزنه من ذي قبل:

– إنت اللي قمت لوحدك علشان انا اقعد؟

– الصراحة ماما اللي قالتلي.

– بارك الله فيك وفي والدتك.

– شكرًا.

– إنت في سنة كام يا مصري؟

– هبتدي تانية ثانوي بعد أسبوعين إن شاء الله.

– بالتوفيق.. المهم تعرف كويس انت عايز إيه وشاطر في إيه قبل ما تختار أي تخصص علشان أكيد انت شايف تلاميذ كتير بيدخلوا كليات لمجرد دخول الجامعة من غير ما يكونوا عارفين هما عايزين إيه!!

– حضرتك بتشتغل إيه؟

– أنا كنت موجه كيمياء بوزارة التربية والتعليم ولسه طالع معاش

بقالي سنة، وكنت في زيارة لابني في إسكندرية.

- حضرتك أصلًا من إسكندرية؟

- لا.. بس ابني بيحبها واختار يعيش فيها.

- حضرتك وافقت انه يعيش في محافظة وانت في محافظة؟!

- آه وماله.. دي حياته وهو حر يختار الطريقة المناسبة اللي يعيش بيها ويكون مرتاح.. بس شفت في عينيك لهفة وسعادة وانت بتسألني أنا من إسكندرية ولا.. إيه السبب يا ترى؟!

- بحبها جدًّا.. كنت أتمنى اطلع إسكندراني.. بلد الفلاسفة والمفكرين والفن والجمال، كانت في الأزمنة السحيقة قبل الميلاد، وأيضًا بعد ميلاد السيد المسيح والعصر المسيحي وصولًا للفتح الإسلامي لمصر من بوابتها، منارة يحج إليها كل طالب علم أو صاحب فكر أو صاحب رأي حُورب لفكره فاحتمى بها.

- الله يفتح الله.. باين عليك انك بتقرأ ومثقف.

- شكرًا لحضرتك.. ربنا يخليك.

- وكمان اعتراضك على الخبر اللي مكتوب في الجرنال يدل انك متابع سياسة وعندك دراية بالأخبار.

- أنا بحب أقرا الجرنال، وطبعًا ببتدي بأخبار الرياضة والكورة، وسر متابعتي للأخبار والسياسة هو أبي اللي بيشجعني على القراءة وبيقول لي دائمًا الحكمة الشهيرة: "تكلم لأراك" ولازم أكون عارف

عشان أعرف أتكلم.

- صح يا مصري كلام أبوك صح.. لازم تكون عارف عشان تعرف تتكلم وتعرف تدافع عن فكرك وحقوقك!!

أخذ الحوار بيني وبين الرجل الوقور مجراه، وطرقنا كل أبوب النقاش، وفتحنا الموضوعات الشائكة في المجتمع قبل الحياتية العابرة، وبحكم حداثة سني حينها كانت بعض الموضوعات خبرة الرجل بها أشمل وأعم فأنصتُّ له واستفسرت منه عنها، والأُخريات كان إلمامي بها كافيًا لأُقيم حوارًا قاعدته الرأي بالرأي والحجة بالحجة، وكان إعجابه بآرائي في تلك السن الصغيرة تزيدني ثقة فوق الثقة، وللحق استفدت من هذا الرجل الكثير.

هنا نهض صديقي مصري وطلب مني النزول لنسير معًا في الهواء الطلق لعله يذهب بحالة الشجن المسيطرة علينا.. السير وسط أنشودة الهواء يبعث في الروح التجدد، ويجلي النفس من شوائب أَلَّمت بها خلف جدران الصوامع والحياة معًا.. استعد مصري للترجل وقام بتهذيب لحيته، وارتدى أطيب ما لديه من ملابس حتى داعبته قائلًا:

- يا سيدي على الشياكة يا سيدي! لا كده انت تخرج مع المحبوبة مش معايا!

ابتسم باستهجان لم يَخْلُ من الشجن وردَّ مقتضبًا:

- المحبوبة.. آه قولتلي! أهي راحت لحال سبيلها.. يالا ننزل احسن!

بمجرد أن وطئت أقدامنا الشارع، واصل مصري استرساله.

لم يتبقَّ إلا القليل ويصل القطار إلى قاهرة المعز، فأخرج الرجل من حقيبته كتابًا أهداني إياه، ولكن ما قاله لي كان المفاجأة: "إهداء إلى المستنير رغم صغر سنه: مصري".. تملكت مني الصدمة بعدما سمعت الإهداء الذي فصل صباي عن شبابي.

قاطعني قبل أن أشكره على الكتاب والإهداء ثم أزاح نظارته من أمام عينيه وتكلم بإخلاصٍ جم قائلًا: دعني أُلخص لك أمرًا في جملة واحدة كي لا تُفأجأ فيما بعد حين تصطدم بمعتركات الحياة.. "المستنيرون يا مصري في بلدنا هم الأكثر عناء اليوم حتى يُعترف بما في صدورهم".

تزامنًا مع جملته الصادمة تيبس القطار معلنًا وصوله، فقمت بوداع الرجل الوقور وانصرفت تاركًا صباي في القطار معلنًا دخولي مرحلة الشباب.

منذ نزولي من القطار وأنا افكر فيما قاله الرجل الوقور.. كلماته الأخيرة لا تفارقني.. ظلت تحاوطني كلما اختليت بنفسي، حتى داهمتني الحياة والدراسة فخفَتَ صوت كلماته في أذني بعض الشيء.. هنا قاطعته سائلًا: وهل وجدت ما حذرك منه أم كان يُبالغ الرجل؟!

أجابني دون تردد: نعم وجدته جزءًا أصيلًا من هذا المجتمع. فتلك الفئة هي الأكثر حظًا من سماع الناس لهم دون إصغاء، وعدم صبر الناس لمعرفة ما يحتوون! فهم يمرون على أحداق أعين الناس مرور الكرام، فهم الأكثر حظًا من مشورة الناس لهم، والأقل في تشبث الناس بهم؛ فأصبحوا مثل الدواء تحتاجه فقط عندما تمرض!!

عمَّ الصمت لبضع دقائق قبل أن أستنفر شجونه بسؤال آخر عن سر استهجانه لمداعبتي حول محبوبته المتُخيلة مني.. نفخ نفخة خِفْتُ من قسوتها أن أكون قد أثقلت عليه، ولكنه سبق ظنوني باستغفار أعقبه بإجابة متسائلة: هل تظن أن حدق عين المحبوبة سيكون أكثر فطنة من أغلب المجتمع، إلا من رحم ربي؟!

فهي الأخرى من ذلك المجتمع الذي لا يصغي إلا لكثير الكلام قليل الفائدة، ولا يفتح قلبه إلا لمن قسا عليه وأظهر عدم التقدير له، وهذه ليست حالة عاطفية بين حبيبين فحسب، بل إنها حالة مجتمعية، فنحن ظللنا عقودًا نفتح قلوبنا للنظام السابق وهو يقسو علينا، فهي نظرية عامة يتم تطبيقها في الأمور الخاصة حتى اندثر المستنير وظهر الرويبضة.

أظنك الآن قد عرفت أسباب شجوني وأملي وفرحتي العارمة بالثورة، فهي الأمل في نفوس جديدة، الأمل في آدمية أرادها الله لعبيده، الأمل في حياة جديدة. وتذكر يا صديقي ثلاثة أشياء مهما حدث من أحداث ساعدت على أن تبعث في قلبك اليأس: الثورة ستنجح.. والمستنيرون لن ينقرضوا.. والمحبوبة قادمة.

ومضات الثريا

علاقة لا رابط لها من ذي قبل، ولا مثيل لها أيضًا!

ثمة علاقة بين صبي عاقل بالغ ونجوم عالية شاهقة بالسماء السابعة، ليس ضربًا من ضروب الجنون وإن كان هو مجنونًا بالأمل والحب، وموصوفًا بالإختلاف من المقربين والمحيطين. ود أن يُشعر باختلافه أهل الأرض جميعًا، بل ويجعل نجوم السماء تُقرُّ له بذاكا.

أمله مشروع وغايته نبيلة رغم مثالية المطلب ، وزن الأمر بميزان يناسب صغر سنه، ولكن السذاجة لم تكن رسمه ووصفه قط، حتى إن خيالاته عميقة وتخفي وراءها الكثير من النضج الكامن بداخله.

استعد الربيع لإتمام مهامه السنوية وبدأت تباشير الصيف وحرارة أجوائه تلوح في الأفق، فلم يتبقَّ عليه إلا أيام معدودة. السماء زرقاء اللون صافية المشهد.. يهفو النسيم العليل وسط أحياء مصر العريقة ومبانيها العتيقة المليئة بالدفء والتراث والألفة.. ينظر منتشيًا تحمله آماله وطموحاته التي بدت ملامحها على وجهه واستحضرها ذهنه؛ ربما لصفاء الأجواء من حوله، فالصفاء باعث لكل ما هو جميل.. ولربما تحت تأثير حلول الشباب وفصله عن صباه، وربما الاثنان معًا.

تتزاحم الأفكار داخل عقله وصدره، وتتكالب عليه الأمنيات

الفضفاضة التي تعزله عمَّن حوله إلى عالم من الهيام، غافلًا في تلك السن المبكرة عن أقدار الدنيا وشجونها، وغاب عن إدراكه حقيقة أن أمنيات لا يصاحبها الشجن فهي أمنيات اللادنيا!!

يترجل بين أحضان الليل وسكونه متفكرًا في تحديات المستقبل، اقتناعًا منه أن الليل أفضل الأوقات للتفكر والتدبر؛ لما يشعر تجاه أضواء قمره وسهريات نجومه من الصدق. نفسه تقترب للفطرة والطيب ليلًا، هكذا يشعر! يثق بأحاسيسه ويصدقها ليلًا أكثر من أي وقتٍ آخر.

ظل يتدبر السماء كعادته، وعلاقة نجومها بالأرض ومن فيها، عشقه للنظر إلى ومضاتها وكأنه يبحث عن ومضة خاصه به بين النجمات، يأمل في الوصول إليها والتشبث بأن تُنير له الطريق. وبينما هو في حالة بحث بين النجمات انبهر بالنجمة الأكثر لمعانًا، ووجد في نورها ضالته للتأمل والاستنارة بها، وأَسَرَهُ جمالها وضياؤها المحبب إلى ذوقه. يُحب النجمة ذات الضياء الساطع البهي لا الخافت الخجول؛ لذا بهرته النجمة الساطعة تلك التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وهذه صفة فريدة لنجمات الثريا، تلك النجمة التي بهرته وجذبته وكأن السماء لا تتسع لغيرها من النجمات!!

أكثرت ومضات الثريا من لمعان طموحاته ونشاطه كما كان تأثيرها على القدماء العرب من سحر وانبهار بوضوحها وروعتها. زاد تعلقه وإعجابه، وزادت جرعات تفاؤله وحالته المزاجية كلما أطلت عليه ومضاتها وأنوار وجهها المشرق وكأنها محبوبته المتعطش لرؤيتها، أو إحدى بنات أطلس السبع في الميثولوجيا الإغريقية المطلق عليهن

الثريا، وسميت تلك النجوم نسبة إليهن.

استقرت بداخله حينها ومضات الثريا وارتبطت بحركاته وآماله وحتمية تعلقه بها، بل أصبح استمرار رؤية ومضاتها هو أكبر أمانيه وعظيم أمله. بدأت تلك الحالة تَكبُر بداخل صدره، وغره ظنه أنه الوحيد القادر على رؤيتها، وأنها لا تبث نورها إلا له، وتشبث بالوصول إليه كما كان يأمل ذلك.

قلبه يغتوي بومضات الثريا كلما نظر إليها!!

وعلى غرةٍ من أمره مرت الأيام والليالي واختلطت نجمات الثريا بغيرها من النجمات، وظلت تتباعد عن عينه يومًا بعد يوم وهو عاجز عن منعها أو استردادها، وهنا شعر للمرة الأولى بامتزاج الأماني بالشجن والأحاسيس بالأقدار. وأجهده البحث عن إشراقها بين الأقمار، لكنها أبت أن تظهر له مجددًا وكأنها إحدى الأساطير أو الحواديت التي طالما حُكي له عنها في صباه، وإذا ظهرت تظهر مره واحدة فقط، فنظر إلى السماء ونجومها نظرة عتاب واكتفى بنشوة عابرة روت روحه لهفةً وألمًا.

أنا اللي بالأمر المحال اغتوى

شفت القمر نطيت لفوق في الهوا

طلته ما طلتوش إيه انا يهمني

وليه . . ما دام بالنشوة قلبي ارتوى؟

عجبي ! !

الغُبار

«يا الله.. يا حي يا قيوم.. يا خالقَ كل شيء ومليكه.. أبتهل إليك يا باعث الأمين بالحق المبين صلوات الله وتسليمه عليه، صلاة طيبة مباركة.. نفسي وروحي وعملي ونسكي لك وحدك لا شريك لك.. أدعوك يا ربي ورب المُطهرين ورب العالمين وقد دُنِّستُ بالاقتراف.. وبجلال عزتك يا ربي أَنْشُد رحمتك بذلِّ الاعتراف.. أُمهد طريقي بحسن الظن بك والطمع في كرمك والنهل والاغتراف.. تعلمُ ما في نفسي وما يغوص بأحشاء الأحشاء.. منك المنَّةُ والفضل، ووجب علينا الحمدُ والثناء.. يا الله، يا واحدُ بلا منازع.. وسعت رحمتك كل شيء، وتجلي نورك في كل شيء.. وأنا عبدك اللاشيء، أطلب عفوك في كل شيء.. فارحمني يا رحيم.. أبتهل إليك ابتهال العارفين ولست منهم، أعوذ بك وأستعين على نفسي وشيطانها، يا مُنجي الموحولين وهادي العصاة وخالق التوبة رحمةً وفضلًا.. أدعوك وأبتهل إليك؛ لأنك - تعاليت وتنزهت- من يستحق الابتهال له والتذلل على أبواب رحمته.. أدعوك أملًا في ومضة غفرانك لنفض غباري.. غباري أعياني وغشَّاني واستقر بباطن قراري، فلا نجاة إلا بك، ولا وصول إلا برحمتك.. غفرانك يا الله!».

يمضي ويسير في طريق الحب بالحب، يبحث عن حب الحب ونفض

الغبار عن نفسه وروحه.. يشعر دومًا بالغبار يعتريه وإن لم يسلك مسالك الغبار، ويعلم أنه لا مفر من الاصطدام بكلِ الطقوس، وأن المناخ متقلب ولا ثبات له، ولكنه يطلب الصفاء والثبات ونقاء الحليب من الشوائب لعله يقترب، ومَنِ اقتربَ اخترق، ومن اخترق اتضحت له الرؤى وتكشفت له الحُجب وأمر الكون بمحبته والانصياع له، فكيف يكون له سرٌّ كبير والغبار يسكن أركانه ويعكر صفوه؟!

الباحث عن سرٍّ كبير يحتاج ودًّا أكبر.. والله أعلى وأكبر.

يعتقد السائر أن خيوط الود وأوصاله مرهونة بالغبار، فكلما زاد الغبار تأخر الود وربما انقطع، ولكنه يخشى الانقطاع جراء غباره، فاعتاد التقرب من المقربين أملًا أن ينال ويئول إلى القبول ويُكرم بالقدرةِ على نفض الغبار وتلمس سُلَّم الارتقاء.. وعَتْ مداركه أن الارتقاء يلزمه الصفاء، والصفاء يتأتى بكثرة الصمت في الازدحام، وكثرة الرجاء والتذلل في الاختلاء.

الاختلاء عين الصفاء، والصفاء نبعٌ يتفجر من النفس، قبل أن يفيض الأحبة بما يعزز الصفاء من طيب الكلام.. الاختلاء صميم أهل الروح!

يقبع بقاع ذاته الضيئلة كل ليلة مُتصومعًا مُختليًا يُنقب عن مداخل الغبار إلى نفسه ليسدَّها بالمناجاة والأوراد والذكر والتحليق بالترتيل.. ترتيلٌ لساني قلبيٌّ يلتمس به أن يُكتب من الخاشعين لذكر الله، والذين وجلت قلوبهم لذكره. يبغي بترتيله استحضار جلال الله وعظمته في قلبه قبل ثواب الترتيل، فزيَّن أوقات اختلائه بخاتمة

ترتيل بديعة اقترنت بالتسبيح والتجليل للحق سبحانه وتعالى. بقولٍ آخر أكثر تفصيلًا، أخذ يُرتل ذلك الآمِلُ في نفض غباره آي القرآن، وكلما قرأ لفظ الجلالة كبَّر في مواضع وتمتم بإجلال الشأن والعزة لله، وكلما قرأ صفاته عطر فمه بالتسبيح.

كلُّ السالكين السائرين في طريق نفض الغبار، السابقين منهم واللاحقين، ومنهم بالطبع السائر سابق الذكر بالترتيل والاختلاء، يوقنون بوعورة الطريق ومشاق خطواته، يَنْشُدون التغلب على الهوى، والثباتَ، ويعرفون أن الدعاء والمناجاة تُزيل العقبات، وأن لا حول لهم ولا قوة في إتمام النفض الذي لا يتم أبدًا، ومن زعم القوة وقدرة البلوغ خرج عن المسير، فوالله ما هم بالغوه إلا برحمة الرحمن وحده لا أحد سواه.

لم يستنكف المتربص لغبار نفسه عن الترتيل المقترن بالذكر طوال أوقات اختلائه، وكلما رتَّل خشع وارتقى وتبتل، قاصدًا تغمد الرحمن له بالرحمة.. في إحدى ليالي اختلائه الحانية الرقراقة كنبع ماء صافٍ، شعر بسكونٍ نفسي عميق، وسريرة بغير شجون، وأخذ يرتل ما تيسر من سورة الرحمن:

{الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن
مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ
وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ
﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾
وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾}.

يرتل ويردد ويكرر بعين قلبه قول الحق: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.. كرَّر الآية الكريمة أكثر من مرةٍ حتى ارتجف وأجهش بالبكاء.. تتساقط دموعه غاسلة روحه ونفسه من الغبار العالق بها. تحدَّث مناجيًا مرتجفًا: يا الله، صدق قولك: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. سبحانك، ثابتٌ ملكك، جل شأنك، تُغير الشأن والحال من حال إلى حال، تُغير ولا تتغير. كيف كان شأني بالأمس وكيف صار اليوم برحمتك وفضلك؟! وما زلت أطمع أن تزيد يا الله بكرمك وتنفض الغبار عن روحي.. أعلم يا مولاي أنه لا نفضَ كليًّا للغبار، ولا الوصول والروح بين الضلوع، وإن زعمت الوصول انتابني الشطح وزاغت بصيرتي وضللتُ وارتدَّ غباري من حيث نُفض!

ثم من بعد الرجفة أتته غفوة النعاس المطمئن وقد سكن التعلق بقلبه وكيانه، والسعي فوق كل سعي، وغاية الوصل بأهل الوصل فوق كل غاية، ومسالك نفض الغبار أحب المسالك إليه، فلا اطمئنان تام ولا وصول مُبين ولا نفض للغبار إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.. وهو على الأمل سائر، وبالحب مشتاق، وبغاية النفض مُتقرب، وبالرحمة مقبول.

***

شكر وامتنان

إلى الأستاذ حسن الزوام، رئيس تحرير مجلة ساقية الصاوي ومدير تحرير مجلة المصرفي وبوابة البلد اليوم الإلكترونية.. فلولا اقتناعه بقلمي وكلماتي ومساعدته ما كان لي عندكم ذكر.

تتبختر الدنيا بين ضلوع الإنسان وتتمايل في ثوب حرفي الألف والهاء (آه). الكلمة واحدة وإصداراتها متعددة، لكل إصدار غاية وشأن. آهة الفرحة يلازمها ابتهاج الوجوه، وآهة الألم يصحبها ضيق الجبين، وآهة الذكرى تلاحقها تنهيدة مرور السنين، وآهة الندم جالبة للشجن، وأخرى تفتح للنشوة مسلكًا. وكلها أحاسيس ترسم لوحة خربشات الحياة التي لن ينجو منها أحد من العالمين ليحق قول الحق: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ).
صدق الله العظيم



كريم علي كاتب ومهندس مصري من مواليد القاهرة ١٩٨٨، تخرج من كلية الهندسة عام ٢٠١٠. نشر عددا من قصصه في صفحات ومواقع إلكترونية، كما نشر العديد من المقالات في بوابة البلد اليوم الإلكترونية، وتعتبر "إنسانزم" هى أولى مغامراته في عالم الكتاب.

